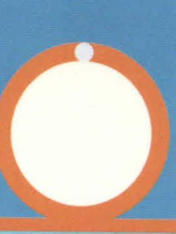


سلسلة المقالات والأوراق العلمية (3)

جَلَاءُ الحَدَاثَةِ

إيضاحات لبعض الأصول في الفكر الحداثي وبيان تهافتها



تحرير وإشراف

د. محمد بن إبراهيم السعيدي

د. علي بن محمد العمران





جلاء الحداثة

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

السعيدي، محمد بن إبراهيم

جلاء الحداثة./محمد بن إبراهيم السعيدي.- الرياض، ١٤٣٩هـ.

١٤٨ص: ١٤× ٢١سم

ردمك: ٨-٩-٩١٠٧٧-٦٠٣-٩٧٨

١-الحداثة أ. العنوان

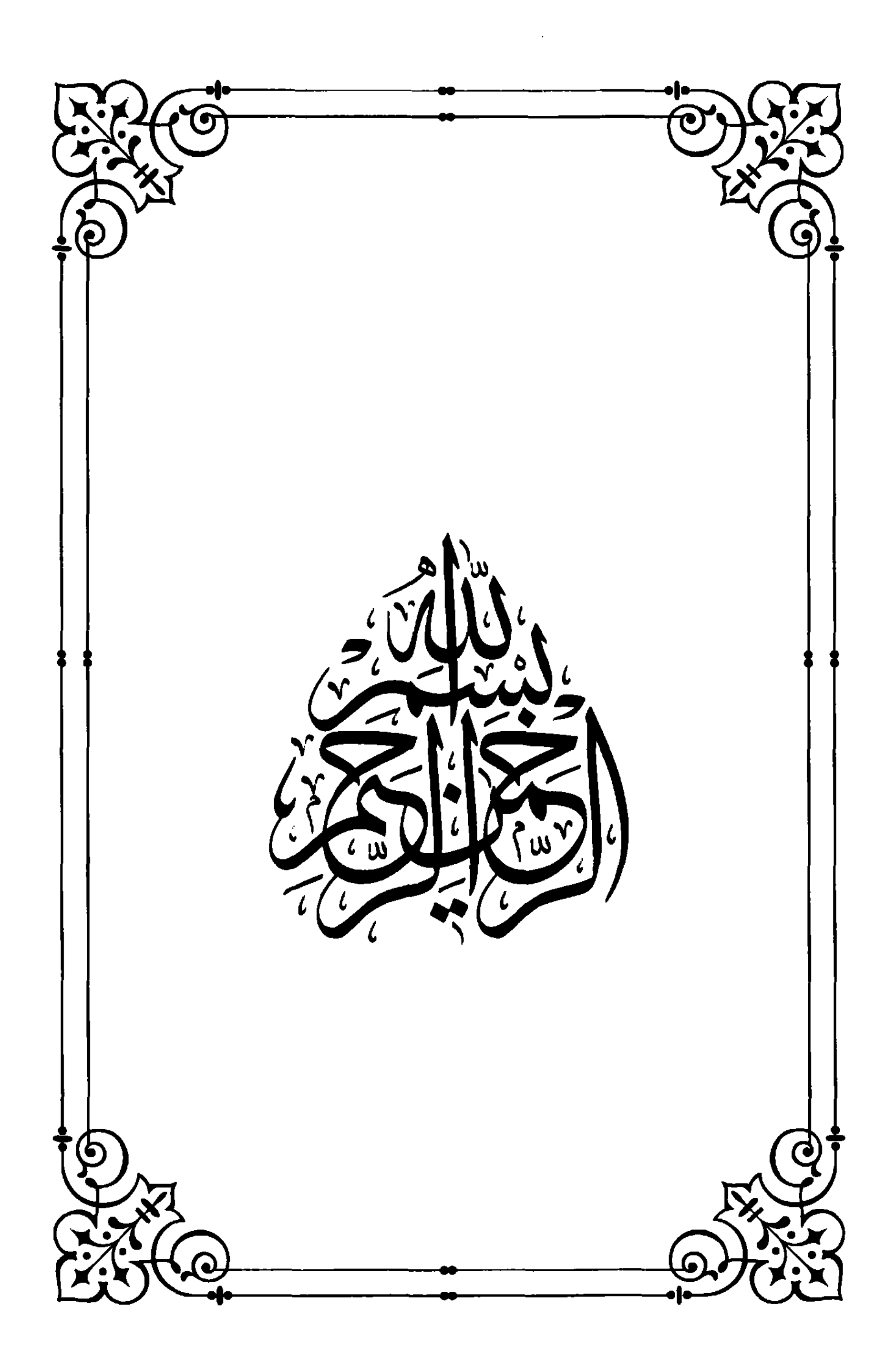
ديوي ٣٠١,٢٤٢ ١٤٣٩/٥٢٦٨

رقم الإيداع: ٥٢٦٨ / ١٤٣٩

ردمك: ٨-٩-٩١٠٧٧-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الأولى

١٤٣٩هـ - ٢٠١٨م


بسم الله الرحمن الرحيم



المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الوحي ضرورة إنسانية وحقيقة برهانية متعالية على البشر، كما أنه مصدر معرفي يقيني دلَّ عليه العقل الصحيح والواقع المحسوس والماضي الغابر، ولا يمكن التعامل مع إرشاداته وتعاليمه بمنطق الأخذ والرد أو الاعتراض، فعلاقة المكلف به علاقة تسليم وقبول، ونظرًا لهذه المكانة التي يتبوَّؤها الوحي؛ فإنه لا يمكن لأي باحث في موضوع ديني أن يتجاوزه أو يعُدَّه ثانويًّا أثناء البحث في القضايا الدينية.

ومن هنا كان الموقف من الوحي هو العقبة الأولى لكل المشاريع الهدمية للدين؛ وخصوصًا تلك التي تظهر بمظهر المنتسب أو المداهن، فيكون لزامًا عليها أن تحدد موقفها من الوحي؛ لأنه هو الذي يمنحها المصداقية في الدعوى أو ينزعها منها، ويعد المشروع الحداثي من أكبر المشاريع التي حملت على

عاتقها مواجهة الوحي وتدنيس قداسته وزعزعة مكانته وزحزحة هيمنته علىٰ الفكر والثقافة.

وبالرغم من أن مصطلح الحداثة يحمل في بنيته اللغوية ما يهدمه؛ إذ حديث اليوم قديم الغد، فإنه في الواقع الغربي يبدأ بالهدم والبعثرة والتفكيك، ونُقل إلىٰ الواقع العربي بذات الثوب الغربي بمقاساته وأحجامه وهنَّاته وعلاته؛ لينزِّل علىٰ الدين الإسلامي والوحي الإلهي، وفي الواقع تتلخص دعوتهم في محاولة أنسنة الدين، أي: تسليط الآليات والمفاهيم الغربية الإنسانية تلك علىٰ الوحي الإلهي والدين الرباني؛ إذ الوحي والدين غيبي أسطوري علىٰ النقيض من المفاهيم العقلية اليقينية

هذا بالإضافة إلىٰ إلحاحهم ومناداتهم بالقطيعة المعرفية مع التراث والماضي لتاريخيته ولنسبية الحقيقة.

وفي هذه المقالات سنتناول هذه القضايا الشائكة، ونحرر موقف الحداثيين من الوحي، ونبين موقف الشرع منهم، منتقلين في ذلك بين أفكارهم وقضاياهم كالتاريخانية والنسبية والقطيعة المعرفية.





موقف الحداثيين من حجية الوحي

الوحي ضرورة دينية وسلطة فوقية تتعالىٰ علىٰ كل السلطات، كما هو مصدر معرفي يقيني بالنسبة للمتدين، فلا يمكن التعامل مع إرشاداته وتعاليمه بمنطق الأخذ والرد أو الاعتراض، فعلاقة المكلف به علاقة تسليم وقبول، ونظرًا لهذه المكانة التي يتبوؤها الوحي في نفوس المتدينين فإنه لا يمكن لأي باحث في موضوع ديني أن يتجاوزه أو يعتبره ثانويًا أثناء البحث في القضايا الدينية، ومن هنا كان الموقف من الوحي هو العقبة الأولىٰ لكل المشاريع الهدمية للدين وخصوصًا تلك التي تظهر بمظهر المنتسب أو المداهن، فيكون لزامًا عليها أن تحدد موقفها من الوحي؛ لأنه هو الذي يمنحها المصداقية في الدعوىٰ أو ينزعها منها، ويعد المشروع الحداثي من أكبر المشاريع التي حملت علىٰ عاتقها مواجهة الوحي وزحزحة هيمنته علىٰ الفكر والثقافة، وسوف نحاول في هذا المقال دراسة موقف الحداثيين من حجية الوحي واعتباره؛ ولتبيين موقف الحداثيين من الوحي فإننا نبدأ بموقفهم من الوحي نفسه والذي نتج عنه الموقف من حجية الوحي:

موقف الحداثيين من إمكانية الوحي والنبوة: إن الفكرة الحداثية العربية لم تصرح برفض الوحي مطلقًا وفي المقابل لم تقبله مطلقًا، ويمكن معرفة موقفها النهائي من الوحي من خلال دراسة شاملة للمفاهيم المشكلة للوحي، وهي كونه كتابًا منزلًا من السماء على بشر من البشر اصطفاه الله، فحين نطرح الوحي بهذا الطرح ونرجع إلى الفكر الحداثي، سوف نجد الموقف صريحًا منه، إذ الحداثيون يصرحون بأنه لا يوجد نص مكتوب في هذه الدنيا يمكن تقبله على أنه منزل من السماء أو متعال على ظروفه التاريخية التي أوجدته وجعلته ممكنًا[١]. وعليه "فالقول بإلهية النصوص والإصرار على طبيعتها الإلهية يستلزم أن البشر عاجزون بمناهجهم عن فهمها ما لم تتدخل العناية الإلهية بوهبهم طاقة خاصة تمكنهم من الفهم"[٢].

كما اعتبروا أن الإقرار بأن النبوة من عند الله هو قضاء على الإنسان، واشترطوا للتقدم تحويل مركز الحضارة من الإلهيات إلى الإنسانيات[٣].

---

(١) ينظر: العقل والتاريخ والوحي محمد المزوغي (ص١٠٢).

(٢) نقد الفكر الديني (ص ٢٠٦).

(٣) ينظر: الدين والثورة حسن حنفي (٢/ ٦٦).

كما أكدوا علىٰ ضرورة تأسيس الدين بدون وحي أو إلهيات؛ لكي يتم تفسيره من داخله، وتأسيسه علىٰ يقينه الذاتي كنظام مستقل، ويصبح اللجوء إلىٰ ما هو خارج الطبيعة لا لزوم له(١).

والوحي انطلاقًا من هذه النظرية لم ينقطع؛ لأنه تعبير عن الطبيعة الإنسانية، وهو مفهوم لا ينكر النبوة، بل يعني استمرارها ودوامها عن طريق النزوع إلىٰ الطبيعة، فكل ما يميل إليه الإنسان بطبعه هو الوحي؛ فالناس أنبياء يوحىٰ إليهم، وصوت الطبيعة هو صوت الله، والوحي الطبيعي هو أكبر رد فعل علىٰ الوحي الرأسي، فهو وحي بلا معجزات ولا ملائكة(٢).

فهذه المادية الصارخة هي الْمُشَكِّلَةُ لمفهوم الوحي عند الحداثيين، والتي تعزله عن أي بعد غيبي أو خصوصية لبشر، بل تجعل النبوة قوة تخييل عند بعض الناس وما يمليه الوحي لا ينال صفة الإلزامية من ذاته؛ وإنما من ذات الإنسان المستندة إلىٰ الطبيعة وما تسمح به(٣).

وفي نفس السياق ترىٰ المدرسة أن الوحي مرحلة من مراحل الوعي يمكن تجاوزها بعد النضج العقلي للمجتمع البشري،

---

(١) ينظر: مقدمة حسن حنفي تربية الجنس البشري (ص٦٧).
(٢) ينظر: من العقيدة إلىٰ الثورة (٤/ ١٠٣).
(٣) ينظر: لعبة المعنىٰ علىٰ حرب (ص ١٠٣).

يقـول محمـد خلـف: "إن البشـرية لـم تعـد بحاجـة إلـىٰ مـن يتـولىٰ قيادتها في الأرض باسم السماء فقد بلغـت سـن الرشـد، وآن لهـا أن تباشر شؤونها بنفسها"[١].

ففكـرة خـتم النبـوة تعنـي نهايـة مرحلـة توجيـه الإنسـان ليقـوم بنفسه "ويمكن إلغاء دلالة الكتاب إلغاء تامًّـا، وكأنـه غيـر موجـود، والـذي يعلمنـا لـيس القـرآن وإنمـا نفـس حـوادث الكـون والتاريخ"[٢].

وهذا التفسير للـوحي والنبـوة يجعـل القـارئ يتصـور وبشـكل منطقـي موقـف المدرسـة الحداثيـة مـن حجيـة الـوحي، ونحـن لـن نـترك القـارئ في دائـرة الاسـتنتاج الـذي هـو نـوع مـن الإلـزام قـد يخالفنا فيـه، وإنمـا نـترك المدرسـة تتحـدث عـن نفسـها حـول هـذا الموضوع:

موقـف الحـداثيين مـن حجيـة الـوحي: يكفـي في معرفـة نظـرة الحداثية للوحي نوع العبارات التـي يسـتخدمون في توصـيفه، فهـي لا تخلـو مـن تـنقص ولمـز يفيـد عـدم التقـديس وعـدم الرضـىٰ لأحكامه، فهذا أركون يقول: "أليس مـن الواجـب أن نـتخلص مـن

---

(١) العدل الإسلامي وهل يمكن أن يتحقق من الداخل (ص ٥١).
(٢) ينظر: رسالة انظروا لجودت سعيد (ص٨).

السخرية التي تتحدث عن جنة الله المملوءة بالحور العين، وأنهار الخمر والعسل المرتبطة بالخيال الشعري لدىٰ البدو"[١].

ويقول حسن حنفي: "الألفاظ والمصطلحات الدينية، مثل: الله، الرسول، الدين، الجنة النار، الثواب العقاب، عاجزة عن أداء مهمتها في التعبير عن المضامين المتجددة؛ ولذا يجب التخلص منها"[٢].

وهذا النقد الصريح للمفاهيم القرآنية، ووصفها بالعجز التعبيري عن المضامين الحقيقية هو فرع عن حقيقة مطلقة رغم نسبية الأشياء عندهم وهي أن القرآن ليس وحيًا من عند الله متكاملًا يتم التعامل معه علىٰ ذلك الأساس، ولذلك لا يسمون القرآن باسمه المتعارف عليه عند المسلمين، وإنما يقومون بعملية تمويه ثقافية حين ممارستهم للتشكيك فيه.

فهذا أركون يطلق عليه المدونة النصية[٣].

---

(١) القراءة الجديدة عبد الرزاق هوماس (ص٦٥) نقلا عن كتاب قراءات في القرآن لمحمد أركون النسخة الفرنسية (ص ١٢).
(٢) التراث والتجديد حسن حنفي (ص١١٠).
(٣) ينظر: كتابه القرآن من التفسير الموروث إلىٰ تحليل الخطاب الديني (ص١١٩).

وأبو زيد يطلق عليه النص اللغوي[١].

ويوظف أركون معارضة المشركين للقرآن ليجعل من ذلك مستندًا له في القول بتأليف القرآن، ويدعي أن هذه المعارضة لم تكن ناتجة عن جهل، أو معارضة منظمة للكتب السماوية، ويرىٰ أن هذا التوظيف مهم لتأسيس فكر إبداعي ينظر بنظرة مختلفة عما قبله لظاهرة الدين ومعناه. ويقول: "إن الخطاب القرآني قد صِيغَ لغويًّا بصفته جُهْدًا ذاتيًا مبذولًا لرفع نفسه إلىٰ مستوىٰ كلمة الله الموحىٰ بها"[٢].

ولم يخل كتاب من كتب الحداثيين بوصف القرآن بالتاريخية أو التراث، ومرادهم من ذلك: نزع القداسة عنه، وجعله نصًّا لغويًّا يتعامل معه وفقًا لآليات النصوص اللغوية، والتي من بينها النقد والتمحيص والأخذ والرد، ويؤكدون علىٰ ضرورة تأويله تأويلًا يجعله متماهيًا مع مراد القارئ ومتطلباته، فنصر أبو زيد يقرر أن الخطاب الإلهي خطاب تاريخي وبما هو تاريخي، وعليه فإن معناه لا يتحقق إلا من خلال التأويل الإنساني؛ لأنه لا يتضمن معنىً مفارقًا جوهريًّا ثابتًا له إطلاقية المطلق وقداسة الإله[٣].

---

(١) ينظر: نقد النص علىٰ حرب (ص ٢٠٧).
(٢) القرآن من التفسير الموروث إلىٰ تحليل الخطاب الديني (ص٢١).
(٣) ينظر: النص السلطة الحقيقة (ص٣٣).

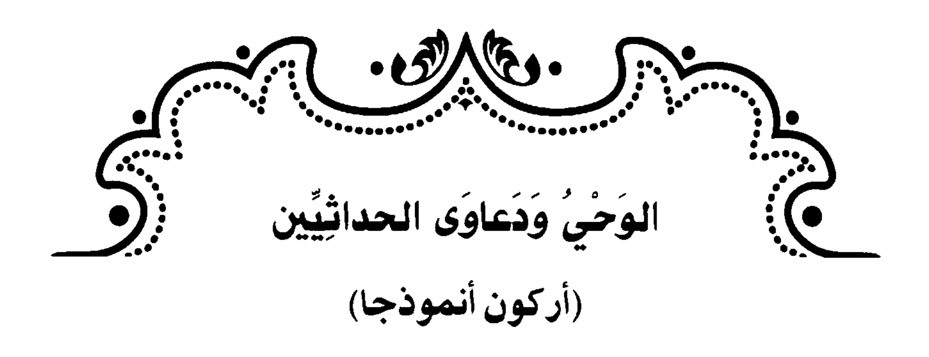
والقاعدة الأساسية المشتركة بين جُلّ الخطابات الحداثية، هي تغليب الجانب الحسي على الجانب الغيبي، والارتكاز على النزعة المادية، والنظر من نافذتها إلى قضية الوحي، ويتأكد ذلك من خلال التركيز على محورية الإنسان على حساب الوحي، وتغليب فهم القارئ وتقديمه على النص، مما يجعل معنى النص غائبًا وغير محدد، وهذا يؤدي حتمًا إلى نزع سلطته على القارئ فلم يعد بإمكانه إضافة علوم إليه أو توجيهه؛ لأن القارئ سوف يفهمه على وَفْقَ ما يريد وانطلاقًا من ثقافته وميولاته، والهدف المركزي من هذا كله إزالة الصبغة الإلهية والمصدرية الربانية عنه، وإزالة صفة الإطلاق، وتجاوز الظروف الزمانية والمكانية؛ والمواقف التي ذهب إليها كثير من أتباع الخطاب الحداثي في حقيقة الوحي، ليست جديدة، وإنما لها امتدادات في الفلسفة الغربية وبعض أنماط الفلسفة الإسلامية.

والخطاب الحداثي يمارس تعمية على القارئ شديدة الخطورة، وهي وقوفه عند العناوين دون تعزيز استنباطاته بأمثلة علمية، أو وقائع عملية تثبت صدق دعواه، فهو يتجاهل العلوم والمعارف التي قدمها القرآن والسنة كما يتجاهل النظم والأخلاق التي يؤكد عليها الدين ويكتفي بالنقد العام والخلط بين النظرية والممارسة، فهو حين ينتقد الوحي أو يحاول نزع القداسة عنه

يلجأ إلىٰ الممارسات ليجعل منها تحققًا عمليًّا للنص مع أن الممارسة لو حوكمت إلىٰ النص ذاته لوجدت مخالفة له، ومن ناحية أخرىٰ فإن الخطاب الحداثي في إنكاره لحجية الوحي لم يقدم بدائل مقنعة عنه في حياة الناس، وإنما اكتفىٰ بالغموض وتعويم دلالات الألفاظ كآلية تعويضية عن العجز المعرفي لديه[1].

---

(١) إعداد: الحضرمي أحمد الطلبه.



الوَحْيُ وَدَعاوَى الحداثِيِّين

(أركون أنموذجا)

إن المنهج السلفي الإسلامي كمنظومة فكرية متكاملة يعتبر من أقوىٰ المناهج صمودا في وجه ما يعتريه من عوارض تريد تحريفه أو تحويره أو تطويعه لغيره، فقد تعايش رعيلها الأول مع يهود المدينة وحافَظ علىٰ معتقداته وأفكاره وسلوكياته، ثمَّ لما فُتحت الأمصار انتشر الصّحابة رضوان الله عليهم يبثّون في الناس نور الرسالة الإلهية، ونسائم السنة النبوية، استطاعت أن تصنع من شتىٰ العقولِ نوابغَ للإسلام، وتنهضَ بالأمة وتُمسك الزِّمام.

وإنك إذا أنعمتَ النظر في التاريخ، تراءىٰ لك كيف صمَد المنهج الإسلامي أمام الفكرِ الفارسي الذي لا خلاف في دهائِه، بل تعايشَ معه وأخرج من قلب الكيان الفارسي جهابذة الإسلام.

كما نجح هذا المنهج أيضا في مواجهة الفِكر اليوناني الفلسفي رُغْم خطورته ووُعُورته الجارفة، ووقوفِ كثير من المنتسبين إلىٰ الفكر الإسلامي في صفِّه، ولكن لم تتكلّل تلك المحاولات الكلامية بالنجاح أيضا؛ ذلك أنّ الله ﷻ حافظٌ دينه وشرعه سواء نصوصه ومعانيه؛ بتسخير العلماء الربانيين الذين يذبُّون عن كتابه

وسنَّة نبيه ﷺ، وينفون عنهما تحريف الغالين وتأويل الجاهلين وانتحال المبطلين(١).

واليوم يعيش الفكر الإسلامي صراعًا حاميًا مع الفكر الغربي المادي، وكالعادة تبَنَّىٰ بعضُ مَن في الدَّاخل الإسلامي هذا الصِّراع؛ ومن أولئك الحداثيون الذين تشرَّبوا أفكار أصحابهم الغربيين، وراحوا يطوِّعون النصوص والمفاهيم الإسلامية لتلك المفاهيم الغربية الجافة.

وفي هذه الورقة سنبرز إحدىٰ مُحاولات الحداثيين تلك، ونتناولها بالبحث وهي (مسألة الوحي) بدءًا ببيان المعنىٰ الحقِّ للوحي، علىٰ ما فَهِمهُ السَّلف، وكشف زخرف الحداثيين الذين حرفوا هذا المفهوم عن مراده وطوَّعوه للفلسفة الغربية، مكتفين في ذلك بالإشارة عن العبارة، وبالبرهان عن العيان.

وجعلنا الضوء مُسلَّطًا علىٰ (أركون)؛ لأنه يُعتبر أبرز من أظهر انتقاد المفهوم السلفي للوحي، وحاول تطويع معناه للفكر الحداثي الغربي، وتقديم مفاهيم جديدة للوحي غير المفهوم التقليدي (السلفي) علىٰ حد تعبيره(٢).

---

(١) رواه البيهقي في سننه (١٠/ ٢٠٩)، حديث رقم (٢٠٧٠٠) وصححه الألباني.

(٢) ينظر: قضايا في نقد العقل الديني لمحمد أركون (ص٢٨٣ وما بعدها).

ومما يشدُّ حماستنا على كتابة هذه الورقة أن هؤلاء الحداثيين يظهرون الإيمان بالوحي المنزّل من الله تعالىٰ إلىٰ نبيه محمد ﷺ، يقول محمد أركون: "القرآن نفسه يلحُّ علىٰ وجود كلام إلهي أزلي لا نهائي محفوظ في أم الكتاب"(١)، وقول نصر حامد أبو زيد: "الإيمان بالمصدر الإلهي للنص ومن ثَم لإمكانية أي وجود سابق لوجوده العيني في الواقع والثقافة أمر لا يتعارض مع تحليل النص من خلال فهم الثقافة التي ينتمي إليها... إن ألوهية مصدر النص لا تنفي واقعية محتواه"(٢)، ولكنهم في حقيقة أمرهم ينزِعون من الوحي والنبوة أخص خصائصها، ويخلطون السُّم في العسل.

وتقشعرُّ جلود المؤمنين حين ترىٰ هذه المقاريض الجارفة للدين والإسلام، ولكنها سَرعان ما تلين حين تسمع وترىٰ مصداق قول الله تعالىٰ: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [التوبة:٣٢، ٣٣].

وهل لنا أن ندرك قيمة النور إلا إذا عاينَّا من تقلَّبَ في الظلمات.

---

(١) القرآن من التفسير الموروث إلىٰ تحليل الخطاب لمحمد أركون (ص٢٢).
(٢) مفهوم النص لنصر حامد أبو زيد (ص٢٤).

❁ مكانة الوحي في الفكر الإسلامي:

يُعتبر الوحي محورًا أساسيًا من محاور الأديان السماوية والدين الإسلامي خاصة؛ ولو ألغي مفهوم الوحي أو حُرِّف عن وجهه الصحيح لنُزع من دين الإسلام والقرآن خاصية الإلهية والتعالي علىٰ البشرية، وانتفت عنه العصمة والإعجاز بضروبه وأنواعه، ولم يَصدُق عليه قوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء:٩]، ولم يكن مباينا للمنتجات البشرية، بل صار مكتسبا بالمران والمراس، ولأصبح القرآن مغمورًا في وسط المعارف البشرية غير متميز عنها.

إذن الوحي هو النواة الجوهرية الذي علىٰ أساسه يعتبر الدين إلهيا معصوما؛ حيث إن الله هو من أنزلها بخلاف ما كان من وضع البشر.

ولذا نجد مؤرخي الأديان يفرِّقون بين الأديان السماوية والأديان الوضعية، وأن ما نزل من رب الأرض والسماوات ليس كما صدر عن مخلوق من المخلوقات.

وليس نزع سمة الإلهية عن الدين الإسلامي هو غاية ما في تحريف مسألة الوحي، بل بذلك سيكون طريق الحق وعرًا، والوصول إلىٰ الخالق عسيرًا، وتُطبق الحيرة علىٰ الإنسان إطباقًا، فينتهي الحال إلىٰ إنكار وجود خالق للإنسان هادٍ له.

ولما كانت هذه النتيجة الحتمية جرَّاء إنكار الوحي، استنكر رسل الله على من شكُّوا فيما جاؤوا بقولهم: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ [إبراهيم:١٠]، فالشكُّ في الرسول يؤدي إلى الشكّ في المرسِل[1].

وقد كشف الله تعالى هذا السبيل الإغوائي لأعداء الدين، حيث يبدؤون كما أخبر الله عنهم بتكذيب الوحي وينتهي بهم الحال إلى إنكار الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [الطور:٣٣] إلى أن قال: ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الطور:٤٣].

ويا **سبحان الله!** أبعد معايتنا لمن سلك هذا الطريق من معرِضي زماننا عن الوحي ووصولهم إلى ذات النتيجة نحتاج إلى برهان.

ولكل ما سبق نجد القرآن يولِي مسألة الوحي غاية الأهمية، ويعتني بها أيما عناية، فقد فصَّل صفته وجلَّى كنهه وحقيقته، ولم تكن السنة النبوية والآثار بمنأى عنه أيضا، بل تضافرت له جهود الصحابة والسلف، ووضعوه نصب أعينهم، وحاجُّوا كل من حوَّر هذا المفهوم عن حقيقته، وحاوروه وأبطلوا حجته.

ولا إخالك هنا -وأنت طالب للهدى- أن بواعث قلبك قد أقبلت تسأل، **ما مفهوم الوحي عند السلف إذن؟**

---

(١) ينظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٤٨٢).



۞ مفهوم الوحي عند السلف:

إذا ما أردنا أن نعرف حقيقة هذا المفهوم، فلنتجه مباشرة إلىٰ مصدره ومنبعه لنسمع منه ﷻ أوّلا؛ فنعرف كنهَ دعواه، ونسبر غورها، ونستكشف حججها ودلائلها.

تدبَّر كلام الله سبحانه وهو يصف الوحي بقوله: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝١١﴾ [النجم:١-١١]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ۝١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ۝١٩٥﴾ [الشعراء:١٩٢-١٩٥]، ما أوضح هذه الآيات وأبينها دلالةً وتأكيدًا علىٰ أن القرآن وحي مُنزَّل من رب العالمين نزل به جبريل أمين السماوات علىٰ قلب نبينا ﷺ أمين الأرضين بلغة عربية واضحة البيان مسموعة للآذان.

فحقيقـة الـوحي إذن أن يصطفي الله ﷻ أحـدًا مـن عبـاده ويُعلمه بالنبوة، ويخبره بما أراد من الهدايات وأمور الدين والدنيا بطريقة سريعة وخفية[1].

(١) ينظر: مناهل العرفان في علوم القرآن للزرقاني (١/ ٦٣)، ومباحث في علوم القرآن لمناع القطان (ص: ٢٩)، وأما أصل مادة الوحي في اللغة، فقد قال ابن فارس في معجم مقاييس اللغة في مادة (وحىٰ): =



فالوحي إذن كلام الله تعالىٰ فهو متعالٍ ومغايرٌ لكل المعارف والمنتجات الأرضية، ولا علاقة له بتاريخ أو زمان أو مكان بل هو فوق التاريخ، وأيضا ليس هو أمرا كسبيًّا حتىٰ يكتسب بالرياضات والاجتهادات البشرية، وإنَّما ﴿ ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ ﴾ [الحج:٧٥]، فإلقاء الوحي اصطفاء من الله ﷻ لمن شاء من عباده، وليس للنبي المصطفىٰ أي دور في إنشائه أو إلزام الناس به، بل ليس عليه سوىٰ البلاغ، قال تعالىٰ: ﴿ فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظًاۖ إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ﴾ [الشورىٰ:٤٨]، وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [المائدة:٦٧].

وليست مهمة تحمُّل الوحي وتبليغه للناس بالأمر الهيِّن، فإن الملائكة تُرعَد فرائصها وتُصعق وتخِرُّ سجَّدا من سماع كلام رب العالمين، بل ترتجف السماوات وأهلها[1]، فما ظنك ببشر ضعيف صغير.

= "الواو والحاء والحرف المعتل أصل يدل علىٰ إلقاء علم في خفاءٍ، أو غيره إلىٰ غيرك. فالوحي: الإشارة، والوحي: الكتابة والرسالة، وكل ما ألقيته إلىٰ غيرك حتىٰ عَلِمَهُ فهو وحي؛ كيف كان".

(١) ينظر: صحيح البخاري (٤٧٠١).

فإذا كان هذا حال هذه المخلوقات العظام، فكيف كان حال نبينا محمد ﷺ حين بدء الوحي؟

كان بدء الوحي مع نبينا محمد ﷺ بالرؤىٰ والمنامات الصادقة؛ إذ هو أخف وطأً وأقوم سبيلًا لما فيه من التدرج والترفُّق بالنبي ﷺ؛ حتىٰ يتهيأ لتحمُّل الوحي المشاهد يقظة(١).

وفي هذا تقول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: "أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرىٰ رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حُبب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء فيتحنّث فيه... حتىٰ جاءه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك فقال: اقرأ، قال: «ما أنا بقارئ»" إلىٰ أن نزلت عليه أول آية في القرآن وهي قوله تعالىٰ: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ﴾ [العلق:١-٣](٢).

ولما كانت هذه المرحلة تمهيدية لم ينزل فيها شيء من القرآن، فلم ينزل شيء من القرآن منامًا(٣)، بل كل القرآن وحي مسموع من جبريل إلىٰ محمد ﷺ.

---

(١) ينظر: فتح الباري لابن حجر (١/ ٩).

(٢) صحيح البخاري (٣).

(٣) وقد ضل في هذا الفلاسفة المنتسبون إلىٰ الإسلام وغيرهم ممن جعل الوحي محصورًا في النوع الإلهامي والمنامي مما يؤول إلىٰ إنكار النبوة والتسوية بين الوحي وغيره، ينظر: الفصل في الملل والنحل لابن حزم (٥/ ١٧)، مجموع الفتاوىٰ لابن تيمية (١٢/ ٣٩٨ وما بعدها).



ولا نظن أنا نجلِّي لك كيفية الوحي بأفصح من جواب النبي ﷺ حين سُئل، فقال: «**أحيانا يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشده علي، فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال، وأحيانا يتمثل لي الملك رجلا فيكلمني فأعي ما يقول**»، وانظر إلىٰ عائشة رضي الله عنها وهي تصف شدته، فتقول: "ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد، فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقا"(١).

فقد كان يعاني من الوحي شدةً، وكان الصحابة يرونه قد احمرَّ وجهه فجأة وأخذته البُرَحاء حتىٰ يتفصد جبينه عرقًا، وثَقُل جسمه حتىٰ يكاد يرُضُّ فخذُه فخذَ الجالس إلىٰ جانبه وحتىٰ لو كان راكبًا لبركَت به راحلته، وفي هذا يقول ابن عباس رضي الله عنه: "كان رسول الله ﷺ يعالج من التنْزيل شدة، وكان مما يحرك شفتيه - قال ابن عباس: فأنا أحركهما لكم كما كان رسول الله ﷺ يحركهما، وقال سعيد: أنا أحركهما كما رأيت ابن عباس يحركهما، فحرَّك شفتيه - فأنزل الله تعالىٰ: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة:١٦، ١٧]"(٢).

وهنا وقد لاح لك مما مضىٰ لون أو اثنان من أطياف الوحي،

(١) صحيح البخاري (٢).
(٢) أخرجه البخاري (٥).

لعلك تتشوف إلىٰ رؤية باقي الأطياف، ونحن لا نمتري أنا لن نجد لـك أوضـح وأوجز مـن نـص القـرآن في ذلـك حيـث يقـول تعـالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾ [الشورىٰ:٥١].

فمن الـوحي ما يكون إلهامًا يقذفـه الله في قلـب مُصـطَفاه علىٰ وجهٍ من العلـم الضـروري لا يسـتطيع لـه دفعًـا ولا يجـد فيـه شـكًّا، ومنه ما يكون منامًا صادقًا يجيء في تحقُّقه ووقوعِه كما يجيء فَلَقُ الصُّبح في تبلُّجه وسطوعه، وهذان الصنفان غير مسموعين.

وأما الوحـي المسموع: فمنه مـا يكـون كلامًـا مباشـرًا بـين العبـد وربـه؛ كمـا كلَّـم الله موسـىٰ تكليمًـا، ومنـه مـا يكـون بواسـطة أمـين الـوحي جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ وهـو مـن أشـهر أنـواع الـوحي وأكثرهـا، وهـو الذي به نزل القرآن كله[1].

وفي هذا يقول الإمام الزهري رَحِمَهُ اللَّهُ: "نزلت هذه الآية تعـم مـن أوحىٰ الله إليه من البشر. فكـلام الله الـذي كلـم بـه موسـىٰ مـن وراء حجاب والوحي ما يوحي الله إلـىٰ النبي مـن أنبيائـه علـيهم السـلام ليثبت الله عَزَّوَجَلَّ ما أراد من وحيه في قلب النبي ويكتبه وهـو كـلام الله ووحيه ومنه ما يكون بين الله وبين رسله ومنـه مـا يـتكلم بـه الأنبيـاء

(١) ينظر: الفصل في الملل والنحل لابن حزم (٥/ ١٧).

ولا يكتبونه لأحد ولا يأمرون بكتابته ولكنهم يحدثون به الناس حديثا ويبينونه لهم؛ لأن الله أمرهم أن يبينوه للناس ويبلغوهم إياه ومن الوحي ما يرسل الله به من يشاء ممن اصطفاه من ملائكته فيكلمون به أنبياءه من الناس ومن الوحي ما يرسل الله به من يشاء من الملائكة فيوحيه وحيا في قلب من يشاء من رسله"(١).

والوحي من أمور الغيب التي اختص الله بها أنبياءه؛ ولذا فالمبالغة والاجتهاد في تقريب صورة الوحي إلىٰ الأذهان بأمر من الأمور المحسوسة غير دقيق، ولا يمكن تقريب صورة الوحي بذلك، كما فعل بعض المعاصرين(٢).

وبهذا نوقن أن القرآن كلام الله سبحانه المنزَّل علىٰ نبيه محمد ﷺ، قال تعالىٰ: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ١٥٥﴾ [الأنعام:١٥٥]، وقال تعالىٰ: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:٦]، والله ﷻ متصف بصفة الكلام علىٰ ما يليق بجلاله وكماله سبحانه كما قال تعالىٰ: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ١٦٤﴾ [النساء:١٦٤].

---

(١) أخرج بعضه ابن أبي حاتم في تفسيره (٩/ ٢٨١٨)، وأورده بتمامه شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوىٰ (١٢/ ٣٩٧).

(٢) المحرر في علوم القرآن لـ د. مساعد الطيار (ص: ٦٢).

وأما النبي ﷺ فليس له أي شأن في تعديله فضلا عن إنتاجه، بل نزل القرآن مؤثّرا ومغيِّرا ومخرجًا للبشرية من الواقع المظلم الذي كانوا فيه، فضلًا عن أن تتأثر ببشريته وأحواله النفسية والاجتماعية أو ظروفه الزمانية والمكانية، كما قال تعالىٰ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ [إبراهيم:١].

ومعنى هذا أن القرآن ليس منتجا خارجا من واقعه وثقافته، بل هو هابط من رب العالمين ليرتقي بواقع قريش إلىٰ أعلىٰ عليين، ويُهيِّئهم لقيادة البشرية إلىٰ بر الأمان ونعيم الجنان، وقد حصل ما وعدهم الله، إذ أذعنوا له فأذعنت لهم الأمم وانقادوا(١).

إذا استوعبنا هذا، **ففيم يختلف الحداثيون عن السلف وهم يؤمنون بالوحي؟**



(١) وللاستزادة ينظر: تاريخية النص القرآني، وورقة علمية صادرة عن مركز سلف للبحوث والدراسات: http://salafcenter.org/642

۞ مفهوم الوحي عند الحداثيين:

صحيحٌ أن الحداثيين يسلِّمون بدعوىٰ نزول الوحي ويصرِّحون بالإيمان به كما مر معنا في أول هذه الورقة، ولكن شتَّان بين الوحي الذي نزل علىٰ محمد ﷺ وآمن به المؤمنون، وبين مفهوم الوحي الذي ادّعوا الإيمان به وراموا فيه التلفيق بين الوحي النبوي وأفكار الحداثة الغربية.

وهذا الأسلوب الخداعي الترويضي -إظهار الإيمان بشيء مع عدم التسليم به في الحقيقة- هو دأبهم في تعاملهم مع أصول الدين ومسائله التي لا تتفق وأفكار أساتذتهم من الفلاسفة الغربيين؛ ذلك أن المرحلة الحالية -كما يقولون- لا تحتمل التصريح بمناقضة الدين وأصوله؛ لأن تلك الأصول مغروسة في العقل الإسلامي غرسًا ومسلَّمٌ بها من منظور دوغمائي(١) وتشكل تركيبتها الاجتماعية والثقافية وانتمائها التاريخي ومن ثَمَّ لا يصح التصادم معه وإنما ترويضه وتطويعه حتىٰ تتم السيطرة عليه(٢)، يقول أركون: "ما كان قد قُبل وفسِّر وعيش عليه بصفته الوحي في السياقات اليهودية والمسيحية والإسلامية ينبغي أن يدرس

---

(١) الدوغمائية أو الدوغماتية: هو التعصب لفكرة أو اعتقاد معين دون أي قبول لمناقشتها أو الشك فيها، وتُستخدم أحيانًا للإشارة إلىٰ الجمود الفكري، أو التشدد في الاعتقاد الديني أو المبدأ الأيديولوجي.

(٢) ينظر: موقف الفكر الحداثي العربي من أصول الاستدلال في الإسلام لـ د. محمد القرني (ص٢٩٢).

أو يقارب منهجيا بصفته تركيبة اجتماعية لغوية مدعمة من قبل العصبيات التاريخية المشتركة"[١].

ولنتصور مفهوم الوحي عند الحداثيين لا بد أن نعرف أن الحداثيين كثيرًا ما يشنِّعون علىٰ اتجاهين في قضية الوحي[٢]، **وهما:**

١- الموقف الأصولي التقليدي السطحي -علىٰ حد تعبيرهم- وهم الذين يدَّعون أن الوحي كلام الله المنزل الذي نزل به جبريل عليه السلام إلىٰ النبي الموحىٰ إليه -**عليهم صلوات الله وسلامه أجمعين**- ويقصدون به (المفهوم السلفي).

٢- الموقف الفلسفي: والذي عالج هذا المفهوم بمناهج ومسلمات الفلسفة اليونانية، فكان أن أنكروا النبوة ظاهرًا وباطنًا، ومع أنه وجدت بعض الآراء الفلسفية التي تدَّعي الإيمان بالوحي إلا أنها في حقيقة أمرها حرَّفت المفهوم الصحيح للوحي، فهي تدَّعي أن الوحي نابع من الإنسان وقواه المكتسَبة بالرياضات والمراس، وأن لا فرق بين الفيلسوف والنبي؛ إذ كلاهما مكتسِب كمالًا بشريًا، فمآل هذا القول كما ترىٰ هو إنكار النبوة[٣].

---

(١) القرآن من التفسير الموروث إلىٰ تحليل الخطاب الديني لمحمد أركون (ص٢١).

(٢) ينظر: القرآن من التفسير الموروث إلىٰ تحليل الخطاب الديني لمحمد أركون (ص ١٠٥ وما بعدها).

(٣) ينظر: النبوات لابن تيمية (١٦٨ وما بعدها)، الجواب الصحيح له أيضا (٣/ ٣٠٢ وما بعدها)، إغاثة اللهفان لابن القيم (٢٦١ وما بعدها) =

والحداثيون لا يرتضون لأنفسهم واحدًا من هذين الاتجاهين، وإنما يرون أن الطريق الأقوم لدراسة ومعالجة قضية الوحي وغيره من القضايا الدينية هو استخدام المناهج البحثية الحديثة لدراستها[1]؛ مثل: منهج التاريخية[2] والأنثربولوجية[3] والألسنية[4] والسيميائية الدلالية[5] والتفكيكية[6].

= هذا بالنسبة لبعض الفلاسفة الإسلاميين، وأما غالب الفلاسفة فهم منكرون للنبوة كما أسلفنا خاصة أرباب الفلسفة الحديثة والمعاصرة، ينظر: العقل والتاريخ والوحي لـ د. محمد المزوغي (ص ١٠٢ وما بعدها).

(١) ينظر: تاريخية الفكر العربي الإسلامي لـ محمد أركون (ص٦١).

(٢) التاريخية: كلمةٌ من وضعِ الحداثيين العرب في مقابل مصطلح (Historicisme) الإنجليزي وهو (مذهب وجودي هدمي يؤمن بنسبية المعارف والقوانين والأحداث والأفكار والقيم بكونها نتاجا خاصا لسياق وضعي تاريخي معين. ينظر: تاريخية النص القرآني، ورقة علمية صادرة عن مركز سلف للبحوث والدراسات: http://salafcenter.org/642

(٣) الأنثروبولوجي: علم يبحث في مراحل تطور الإنسان، وأصله الخلقي، كما يبحث في تطوره الاجتماعي والثقافي.

(٤) الألسنية: علم تطور اللغات البشرية، وعمليات الاتصال، على خلاف ما كان معهوداً في السابق.

(٥) السيميائية أوالسيمانتية: علم الدلالة، وهو علم حديث يبحث في الدلالات اللغوية، يدرس المعاني اللغوية على صعيد المفردات والتراكيب، وما يتبعه من تطور لهذه المفردات بعيداً عن الاشتقاقات التاريخية لها.

(٦) التفكيكية منهجٌ فلسفي، يرى أنه لا يوجد تفسير واحد للمعنى في النص، بل تفسيرات غير محدودة، فبعد أن ظهرت التفكيكية إلى الوجود، أصبحت النصوص عُرضةً لنوع جديد من التحليل والتفسير.

ويبتدئون هذا الطريق الثالث -الذي يعتبره الحداثيون طريقًا وسطًا بين المنهجين- بجعل الوحي مجرد (ظاهرة) وليست حقيقة متعالية مطلقة، وإنما يتعامل معها علىٰ أنها ظاهرة مرتبطة بتاريخ مجتمعها وجغرافيته، ومن ثَم تُدرس تحت الآليات والمناهج الحديثة مثلها مثل غيرها من الظواهر(١).

وبعد أن يُقرِّروا أنها ظاهرة كغيرها من ظواهر العلوم الإنسانية، يبدؤون بالبحث في أسباب هذه الظاهرة وأصولها، وهنا يرجِّح أركون أنَّ منبعها (الخيال)، وهي في منظور العلوم الإنسانية الحديثة: الأفكار التي تعتبر لا واعية ولا عقلانية، وإنما متعلقها الانفعالات والعواطف والانطباعات(٢).

وفي شرح هذا الخيال وكيفية تكوُّنِ الوحي منه يقول عبد المجيد الشرفي: "لقد كانت المعلومات التي تلقاها محمد ﷺ من حوله، واطلع عليها في أسفاره وعن طريق الأحناف أو أهل الكتاب مما كان يبلغ إلىٰ مسامع معاصريه من دون أن يولوه أدنىٰ أهمية؛ لأنه خارج عن آفاقهم الذهنية ومشاغلهم، ومن نتائج تأمله الطويل عندما كان ينقطع عن الناس ويتحنث في غار حراء.

---

(١) في قراءة النص الديني لـ عبد المجيد الشرفي وآخرين (ص٤٢).
(٢) ينظر: معجم العلوم الإنسانية لـ(جان فرانسوا دورتيه) (ص٣٧٢ وما بعدها).

كان كل ذلك المادة التي تخمرت في ذهنه ووصل بها إلىٰ اليقين بأن الله اصطفاه لتبليغ رسالته" إلىٰ أن قال: "وبما أن محمدًا كان يعيش في عالم تغلب عليه القداسة أو الصبغة السحرية حسب المفهوم الفيبري[١]...وأن الذهنية الميثية التي من أبرز خصائصها الحدس والتمثل كانت مسيطرة آنذاك لدىٰ جميع الشعوب وفي كل الثقافات، فلن نستغرب أن نجد آثار هاتين الخاصيتين في ما يبلغه إلىٰ قومه وإلىٰ المسلمين" ثم بعد إسقاط هذه الآليات والمفاهيم علىٰ الوحي يذكر لنا مفهومه للوحي، فيقول: "الوحي إذن هو مصدر علم النبي ﷺ: أي تلك الحالة الاستثنائية التي يغيب فيها الوعي، وتتعطل الملكات المكتسبة، ليبرز المخزون المدفون في أعماق اللاوعي بقوة خارقة لا يقدر النبي ﷺ علىٰ دفعها ولا تتحكم فيها إرادته"[٢].

---

(١) نسبة إلىٰ (ماكس فيبر الألماني -١٩٢٠م) عالم في الاقتصاد والسياسة، وأحد مؤسسي علم الاجتماع الحديث ودراسة الإدارة العامة في مؤسسات الدولة.

(٢) الإسلام بين الرسالة والتاريخ لعبد المجيد الشرفي (ص٣٤ وما بعدها)، وقارن بين هذا وبين أقوال الفارابي وابن سينا في مفهوم الوحي، ثم انظر هل من فرق في غير الألفاظ؟! ينظر: آراء أهل المدينة الفاضلة للفارابي (ص٧٦)، فصوص الحكم للفارابي (ص٣٧)، الشفاء في الإلهيات لابن سينا (ص٤٣٥)، في الفلسفة الإسلامية منهج وتطبيقه، د. إبراهيم مدكور (ص١١٢ وما بعدها).

وهذا الخيال لو تصورنا حقيقته فلا بد أن يرتكز على أسطورة لا على الحقيقة!! ولذا فإن أركون يدَّعي أن القرآن خطاب أسطوري البنية![1]

ولكن أركون يلطِّف هذا المصطلح ويحشوه ببعض الطلاءات التي تخفي عواره؛ بدعوىٰ أنه لا يقصد من مفهوم الأسطورة ما شاع في لسان العرب والقرآن (الخرافة)، وإنما يريد الأسطورة كأحد مفاهيم الأنثربولوجيا الاجتماعية والثقافية التي تكون مُحتوية علىٰ جزء ولو ضعيف من الحقيقة، لكن تدخل المخيال الشعبي أو التراث يضخمها ويخرج بها عن واقعيتها[2].

وهذا المخيال الشعبي والتضخيم هو مصدر تعالي القرآن وسيادته وسلطته ونزع ارتباطه بالتاريخ بدعوىٰ أنه كلام الله؛ وهو أمر ضروري لتجييش الجماهير.

وفي هذا يقول أركون: "وظيفة التعالي التقديسية التي تؤمنها ذروة التشريع أو التسويغ هي ضرورية جدًا بالنسبة للمخيال الاجتماعي. أقصد بذروة التسويغ هنا أو السيادة العليا سلطة القرآن الذي يمثل كلام الله أو هيبة النبي واحترامه..

---

(١) ينظر: تاريخية الفكر العربي الإسلامي لمحمد أركون (ص١٠).

(٢) ينظر: تاريخية الفكر العربي الإسلامي لمحمد أركون (ص٢١٠).

تعاش هذه السيادة العليا من قبل الجسد الاجتماعي (المجتمع ككل) وينظر إليها وكأنها مرجع فوق بشري أو فوق فردي أي يتجاوز البشر والفرد" ويشرح لنا هاشم صالح قول أركون هذا بقوله: "إن الأسطورة أو التركيب الأسطوري للحكايات الشعبية ليس وهما أو خيالًا صرفًا كله وإنما يستند علىٰ أساس من الواقع يشبه النواة المركزية المغلفة بغلافات من صنع الخيال...إننا نقصد التركيز علىٰ أهمية البعد النفسي أو الخيالي الذي يميل إلىٰ المبالغة والتضخيم في حياة الأفراد والجماعات. إنه موجود وفعال ومجيِّش للجماهير خصوصا المجتمعات البدائية والمتخلفة. مثلما هو موجود في العامل الاقتصادي المادي وربما أكثر...إن التاريخ لا تصنعه فقط أو تحركه الأحداث المادية الواقعية التي جرت بالفعل وإنما تصنعه أيضا الخيالات والأوهام التي تصاحب هذه الأحداث عادة أو تسبقها أو تأتي بعدها. إن الأسطورة هي إحدىٰ محركات التاريخ تمامًا كالصراع الطبقي أو كالعامل الاقتصادي"[1].

ونفهم من هذا أن الفرق بين معنىٰ الأسطورة في لسان العرب ومعناه في مفاهيم العلم الحديث هو في كونه محرِّك وصانع للتاريخ ليس إلا.

---

(١) نزعة الأنسنة في الفكر العربي لمحمد أركون (ص٦٣١).

فـالقرآن والـوحي أسـطورة ولكنـه يختلـف عـن غيـره مـن الأساطير لكونه موظَّف للتأثير علىٰ المجتمعات وصنع التاريخ وشحن العزائم!!(١).

ولأن الوحي عنده مجرد خيال بشري إنساني فإنه لا اختلاف عنده بين الأديان السماوية والوضعية علىٰ عكس ما يقرره علماء الأديان من تقسيمها إلىٰ سماوية ووضعية، وفي ذلك يقول أركون: «تحديدنا الخاص عن الوحي يمتاز بخصيصة، وهي أنه يستوعب بوذا وكونفوشيوس والحكماء الأفارقة، وكل الأصوات الكبرىٰ التي جسدت التجربة الجماعية لفئة بشرية ما من أجل إدخالها في قدر تاريخي جديد"(٢).

إذن خلاصة القول: إن الوحي عند هؤلاء مجرد ظاهرة ناشئة عن خيالات وانطباعات النبي ﷺ، حيث يدخل في حالة استثنائية لا واعية، تتعطل فيها الملكات المكتسبة، ليبرز المخزون المدفون في أعماق اللاوعي بقوة خارقة!!

✡ ✡ ✡

---

(١) ينظر: موقف الفكر الحداثي العربي من أصول الاستدلال في الإسلام د. محمد القرني (ص٣٠٢).

(٢) الفكر الإسلامي نقد واجتهاد لمحمد أركون (٨٤).

❁ إبطال التفسير الحداثي للوحي:

إن مجرَّد تصور هذا التأويل لوحي الله تعالىٰ إلىٰ الأنبياء كفيلٌ بمعرفة بطلانه، خاصةً إذا عرفنا أن منطلق الفكر الحداثي هو الخنوع لمنطق الحداثة الغربية ليس إلا، وتطويع مفهوم الوحي الإسلامي إلىٰ ما يتوافق مع ذلك الفكر ويمهد الطريق لدخوله إلىٰ قلب العالم الإسلامي؛ لأن الوحي بالمفهوم السلفي يعتبر عائقا أمام النهضة كما يراها الحداثيون وإن شئت فقل أمام دخول الحداثة الغربية، وما أشبه الليلة بالبارحة.

فإن هذه المحاولة التي يخوضها الحداثيون اليوم ليست جديدة علىٰ الفكر الإسلامي، بل هي محاولة مستنسخة تماما من محاولة الفلاسفة المنتسبين إلىٰ الإسلام الذين راموا تطويع مفهوم الوحي للنظريات الفلسفية اليونانية كالفيض والصدور والمخيلة.

وهؤلاء جمعوا سوآتهم كلها بدءًا من اتهامِ القرآن بأنه أرْضيّ منبعُه نفس محمد ﷺ، ودعوىٰ أنه بشري مستوحىٰ من البشر وأنه تاريخي كغيره من الظواهر التاريخية، وما ذاك إلا ليُخضعوا مفهوم الوحي لنظريات الفلسفة المعاصرة؛ كالتحليل التاريخي والأنثربولوجي ومقارنة الأديان.

فالطريق ذات الطريق الذي سلكه الفلاسفة من قبل والنتيجة ذات النتيجة وهي إنكار الوحي والنبوة.

وكان عليهم لو كانوا طلابًا للهدىٰ وباحثين عن الحق أن يسلكوا المنهج المتناسب مع القرآن كي يفهموه، وأن ينظروا في الوحي وظروفه وأحواله وأدلته وقرائنه كي يستوضحوه، لا أن يأتوا بمنهج يخص العلوم الإنسانية -وإن شئت فقل العلوم الغربية المحدثة- فُتنوا به، ثم يلووا له أعناق النصوص الإلهية، فإن لكل شيء مقياسًا يناسبه وميزانا يوزن به.

إن هذا أشبه بمن يسأل: كم عدد كيلوات الماء الموجود في الكوب!! أو كمن يريد أن يفهم نظريات آينشتاين بمصطلحات أطباء تشريح أعضاء الإنسان، أو يريد أن يفهم مصطلحات ابن تيمية في درء تعارض العقل والنقل بمفاهيم ابن الهيثم.

أهذا هو طريق النهضة والخروج من المأزق الذي تعيشه الأمة اليوم!![1].

الحق أننا رأينا كيف نهض السلف والمسلمون حين فهموا القرآن والوحي بالمنهج الإلهي والنبوي الرصين، أم ظنوا أن ذلك المنهج ليس فيه ما يشفي الغليل ويروي العليل؟! أم جهلوا بما فيهما؟!

الذي نشاهده في النصوص القرآنية والنبوية أنها كثيرًا ما تعرِّج علىٰ هذه المسألة -مسألة الوحي- وتعطيها أبلغ الاهتمام.

---

(١) ينظر: موقف الفكر الحداثي العربي من أصول الاستدلال في الإسلام لـ د. محمد القرني (ص٣٣٢).

وعجبًا لهؤلاء القوم، لم يجدوا للتشكيك في القرآن إلَّا شبهات فنَّدها القرآن نفسه قبل مئات السنين وعفا عليها الدهر وتعفَّنت مع جيف أصحابها ممن هلك في عصر النبي ﷺ؟!

إن كنت ممن يقرأ القرآن فلا إخالك بحاجة إلىٰ شواهد علىٰ ذلك، وإلا فدونك آيات القرآن اعقلها وتدبَّرها، اقرأ إن شئت قوله تعالىٰ ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾﴾ [يونس:١٥-١٧]، وقوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾ وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾﴾ [الفرقان:٤-٩]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ۙ

وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾
قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا
يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ
عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [النحل:١٠١-١٠٣].

أما عن مصدر القرآن فنجد القرآن ذاته يلحُّ كثيرًا أنه منزَّل من الله سبحانه وليس نابعا من عندِ محمَّدٍ ﷺ، بل ويؤكد هذا الأمر بالقسم وغيره من المؤكدات حيث يقول: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ ﴾ [التكوير:١٩-٢١] ذلكم هو جبريل عليه السلام تلقاه من لدن حكيم عليم، ثم نزَّله بلسان عربي مبين على قلب محمد ﷺ، فتلقَّنه محمد منه كما يتلقن التلميذ عن أستاذه نصًّا من النصوص، ولم يكن له فيه من عمل بعد ذلك إلا: الوعي والحفظ، ثم الحكاية والتبليغ، ثم البيان والتفسير، ثم التطبيق والتنفيذ.

أما ابتكار معانيه وصياغة مبانيه فليس له من أمرهما شيء، ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ ﴾ [النجم:٤].

فأما المعاني فقد نص القرآن أنه لا يملك لها تبديلا ولا تحويلا فضلا عن أن تكون اختراعا وإبداعا من خياله: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ﴾ [يونس:١٥]،



وأما الألفاظ فهو يتلقنها ويتلقاها وهي تهبط إليه لا أنه هو يصعدها من نفسه، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ [يوسف:٢]، ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾ [القيامة:١٦-١٩]، ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾﴾ [الأعلىٰ:٦].

هذا عن القرآن في نفسه، فماذا عمَّن جاء بالقرآن ﷺ؟

دعنا إذًا نبحث في الأسباب المادية والظروف الواقعية لحياة النبي ﷺ وتاريخه وأوضاعه النفسية والاجتماعية، علنا نظفر بشيء يدلنا علىٰ حقيقة الوحي والقرآن.

عاش النبي ﷺ أميًا لا يقرأ ولا يكتب حاله حال غيره من العرب في الجزيرة، فهو أُمِّيٌّ بين الأميين ولا غرابة، ولكن الغريب أن يزعم أحد أن هذا الرجل الأمي الذي عاش بين الأميين معزولا عن العلم والقماطر والصحف، بل مشغولًا برزق نفسه وزوجه وأولاده، راعيًا بالأجر، أو تاجرًا بالأجر؛ يصدر عن خياله فجأة أخبار الأولين والآخرين بكلام في منتهىٰ الدقة والفصاحة، ويصف تلك الأحداث كأنها رأي عين!! فهل يُعقل أن هذا من خيال ذلك النبي ﷺ؟!

ثم إنه كان بشرًا يعيش ظروف الحياة وتمرُّ به ﷺ المعضلات والمهلكات من المآزق والمشكلات، فلم يتأثر شيء من القرآن بظروفه وأحواله النفسية تلك إن كانت صادرة عن نفسه؟!

انظر في قصة الإفك كيف رُميت زوجُه عائشة رضي الله عنها وأحب الخلق إليه واتُّهمت بالزنا، وخاض الخائضون في عرضه، واشتد الخطب على نفسه وعلى زوجه، ولكننا نجد القرآن يفتر في تلك الفترة ويتراخى!!

ولو كان القرآن من خياله ألم يكن من المنطقي أن تتسارع الآيات من خياله وهو في تلك الحالة، فيحسم المسألة، ويطمْئن النبيُّ ﷺ زوجَه؟

ولكن ذلك لم يكن، بل ذهب النبي ﷺ يبحث عن حالها ويسأل عنها الناس، ومضت الأيام تلو الأيام والهم يلاحِق النبي ﷺ وزوجه ويعانيان شدته!!

ثم تأمل كيف كان النبي ﷺ يخاف من نسيانه، فيحرِّك به لسانه ويعجَل به حتى تكفَّل الله له بحفظه وعدم نسيانه بقوله: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾ [القيامة:١٦-١٩].

بل تدبّر كيف كان النبي ﷺ تنزل عليه الآيات أحيانا ثم ينتظر فهمها ومعانيها، كما حصل في قول الله تعالى: ﴿وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ﴾ [البقرة:٢٨٤] حيث عاتب النبي ﷺ الصحابة حين استثقلوه حتى بيَّن الله المقصود بقوله:

﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [البقرة:٢٨٦]، بل انظر كيف يغيِّر ﷺ مسار الجيش بأكمله مع تضافر الأسباب المادية لانتصاره؛ فقط لآيات قرآنية نزلت عليه الله ﷻ، كما ما حصل في صلح الحديبية، ولخَّص ﷺ حاله مع القرآن في كلمتين فقال: «إني رسول الله، ولست أعصيه، وهو ناصري»(١).

فلو كان الوحي مرتبطا بنفسه وخياله، فكيف يصدر عنها شيئا لا تعيه، أو تنتظر فهمه، أم كيف يخطط ويرتب للغزو، ولما ينتصر ويتغلب يغيرُ الوحي كل ذلك!!

وإن سلمنا جدلا بأن هذا النبي الأمي استخرج لنا هذا القرآن (الأسطورة العلمية) من لدن خياله المدفون مما عاشه، فهل يُعقل أن يخرج من عصر الظلم والانحطاط الأخلاقي والتفكك الاجتماعي خيالًا يبني به نظامًا دينيًّا مُحكمًا فكريًّا وسلوكيًّا؛ ليرتقي بالبشرية إلىٰ أفضل السبل وأنجع الطرق؟!

هذا النظام الذي طالما حاول العابثون أن يُحدثوا فيه ثغرة فلم يستطيعوا، وكم من السنون مرَّ عليه ولم يتزحزح، فهل كان هذا النظام الديني أيضا من وحي خيال أمّيٍّ تنقَّل بين الرَّعي والتِّجارة وعاش فترة الظلم والوحشية الجاهلية؟!

(١) صحيح البخاري (٢٧٣١).

مـع أنـه لـم يكتـفِ بإظهـار ذلـك النظـام المحكـم، بـل أرفقـه بـالوعود والبشـارات المؤكـدة بـأن ظـروف الزمـان لـن تقهـره، وأن أحداث التاريخ لن تغيره، فـارجع البصـر وانظـر حولـك، هـل تـرىٰ هذا الحفظ بأم عينيك اليوم بعد أربعة عشر قرن من الزمان؟!

ألـيس القـرآن الموجـود في مشـرق الأرض هـو ذات القـرآن المتلو في مغربها، هل تغير منها حرف واحد؟

هـذا لعمـري كفيـل بـأن تـوقن بأنـه ﴿لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت:٤١، ٤٢].

بيد أن القرآن لم يكن هذا غايةُ ما أخبرنا به عـن نفسـه، فإضـافةً إلىٰ الوعد بالحفظ، تحدَّىٰ البشـرية بـأن يـأتوا بصـنو لـه فضـلا عـن مناوئ! ويجزِم بأن ذلك لم يكـن بـل لـن يكـون!! فهـل هـذا الوعـد أيضا يمكن أن يصدر من خيال أمِّي يتيم مشغول بقوت يومه؟!

أضف إلى كل ما سبق أن في القـرآن أمـورًا دقيقـة وأخبـارًا غيبيـة يصعب الوصول إليها بـذكاء العقـل وقـوة مـدركات الحـس؛ كعـدة مكـثِ نـوح عَلَيْهِ السَّلَامُ في قومـه، وعـدة مكـثِ أصـحاب الكهـف وعـدة انتصار الروم علىٰ الفرس، وأطوار الجنين في الرَّحم.

فهل الخيالات والانفعالات النفسية جادت لمحمَّـد ﷺ بكـل ما في هذا القرآن العظيم؟!

وبعد أن بان لك أن دعوىٰ كونه من خيال محمد ﷺ ردَّ عليها القرآن وفنَّدها، تأمَّل.

هل جاؤوا بشبهة جديدة لم تطرقها قريش ولم يردَّ عليها القرآن؟

كلا والله، فقولهم بأنها أسطورة ردَّ الله عليها شبهة قديمة يقول تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾﴾ [الفرقان:٥٠]، فمن أولئك الذين يجدهم وسط أمية مكة ليكتتب عنه الأساطير؟! وما هي تلك الأساطير التي يمكن أن تأتي بمثل هذا القرآن وما فيه وقد عجز البشر عن مثله؟!

ومن أولئك الذين استوحاها منهم وكانوا معلِّميه، ولِم لم يذكر التاريخ أنه تعلَّمه منهم، بل لمَ لم يبرز ذلك الكتابيُّ إلىٰ العالم ليثبت أن محمَّدا أحد تلاميذ القساوسة النصارىٰ؟! وأين هم أعداء النبي ﷺ وخصومه مذ ذلك الزمان ليحتجُّوا عليه بهذه الحجة ويلصقوا به هذه التهمة، علىٰ أنهم حاولوا أن يتهموه بتعلمها من حداد رومي جدلا ولجاجا، فقالوا: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ [النحل:١٠٣] وما أبلغ ردَّ القرآن عليها ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [النحل:١٠٣][1].

(١) ينظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٦٠٣)، النبأ العظيم لـ د. محمد دراز (ص: ٨٥).

هـذا مـا في القـرآن، ولكـن الحـداثيين تعـامَوا عـن كـل تلـك الحقـائق والشـواهد القطعيـة، وراحـوا يصـوِّرون لنـا بـأن الـوحي مجرَّد ظاهرة لا تختلف عن غيرها من الظواهر العرضـية في الواقـع والتاريخ، وكأن القرآن لم يأت بشواهده ودلائله معه!!

ولكن حسبنا أنَّ دعاواهم جيف منتنـة وحجـج مغـبرة ومـزاعم ملفوظة من لدن عصر النبوة، فما هذه الافتراءات الحداثية بجديـدة علىٰ المسلمين، فأكثر اتهامات قريش للوحي هـو دعـوىٰ كونـه مـن عند نفس محمد ﷺ، ولكنهم لم يقرَّ لهم قـرار في ذلـك، بـل كـانوا متقلِّبين تقلُّب المجادل اللَّجوج المحتار غير المطمئن إلىٰ طرحـه وردوده وأدلته، ولا أبلغ لحالتهم تلك من وصف القـرآن إذ يقـول: ﴿ بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ ﴾ [الأنبياء:٥].



۞ الخاتمة:

الوحي ليس ظاهرة عارية عن الدلائل والبراهين كما يريد الحداثيون أن يصوروه؛ ليزعموا بعد ذلك أنه أسطورة من فيض خيال النبي ﷺ، وتأثره بمن لقيه من أهل الكتاب.

بل تضافرت وتعاضدت الأدلة علىٰ كونه وحيا منزلا من عند الله ﷻ لفظا ومعنىٰ نزل به جبريل الأمين علىٰ نبينا محمد الأمين فتلقَّنه وحفظه ثم بلغه وأذعن، والدلائل علىٰ هذا كثيرة، يكفيك منها قول الله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ (١٩٣) عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء:١٩٢-١٩٥].

والحمد لله الذي أنزل علينا قرآنا محفوظًا لفظا ومعنىٰ، وحرَّر وفنَّد الشبهات التي ترِد عليها قبل أن ترِد، فجلُّ ما استطاعه الحداثيون -مع جهدهم الجهيد- أن يردِّدوا تلك الشبهات، ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا (٨١) وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء:٨١، ٨٢].

وصلىٰ الله علىٰ نبينا محمد وآله وصحبه وسلم[(١)].



(١) إعداد: عمار بن محمد الأركاني.



﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر:٩] هـذا وعـد الله الحق الصادق بحفظ دستور المسلمين ودينهم، وهو وعد نافذ لا محالة فـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾ [آل عمران:٩]؛ وليتبيَّن للخلق صدق وعده سبحانه، أَوجدَ من يحاول زعزعة هذا الوعد علىٰ مرّ العصور بتحريف نصه أو معناه أو تعطيل أحكامه، وسخَّر ﷻ لكتابه رجالا جعلهم أهله وخاصته، ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين.

ولا عجب أن يحاول أعداء الإسلام النيل من القرآن، ولكن البلية أن يحاول ذلك من ينتسب إلىٰ الإسلام ممن اتخذ الغرب قبلةً له من الحداثيين الذين حاولوا تطويع القرآن للفكر الغربي، وإسقاط مفاهيمه الفلسفية علىٰ النص القرآني، وفي هذه الورقة سنتناول إسقاطهم مفهوم التاريخية علىٰ النص القرآني؛ وبيان بطلانها، وذلك في ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: مفهوم التاريخية ونشأته.

المطلب الثاني: دخول مفهوم التاريخية إلىٰ الفكر الإسلامي.

المطلب الثالث: بطلان نظرية تاريخية النص القرآني.



❁ مفهوم التاريخية ونشأته:

التاريخية كلمةٌ من وضعِ الحداثيين العرب في مقابل مصطلح (Historicisme) الإنجليزي وهو (مذهب وجودي[١] هدمي يؤمن بنسبية المعارف والقوانين والقيم بكونها نتاجا خاصا لسياق وضعي[٢] تاريخي معين)[٣].

---

(١) "الوجودية -(Existentialisme)- مذهب يقوم على إبراز الوجود وخصائصه، وجعلِه سابقا للماهية، فهو ينظر إلى الإنسان على أنه وجود لا ماهية، ويؤمن بالحرية المطلقة التي تمكن الفرد من أن يمنع نفسه بنفسه، ويملأ وجوده على النحو الذي يلائمه، وصَرَف بهذا النظر عن البحث في الوجود الميتافيزيقي" المعجم الفلسفي لجميل صليبا (ص٢١١).

(٢) "الوضعية -(Positivisme)- مذهب أوجست كونت الذي يرى أن الفكر الإنساني لا يدرك سوى الظواهر الواقعية والمحسوسة وما بينها من علاقات أو قوانين، والعلوم التجريبية هي المثل الأعلى لليقين، وعلى ذلك لا محل للبحث عن طبائع الأشياء ولا عن عللها الغائية" المعجم الفلسفي لجميل صليبا (ص ٢١٤).

(٣) وقد عرفه بهذا د. طارق حمودي في مقال تاريخية النص (التاريخ والمفهوم)، وهو تعريف مستوعب للمفهوم قريب للأذهان بعكس غيره من التعريفات المترجمة من المعاجم الفلسفية والكتب الأجنبية، ومنها:
١- "وجهة نظر تقوم على اعتبار موضوع معرفي بصفته نتيجة حالية لتطور يمكن تتبعه في التاريخ. بنحو خاص؛ يقال هذا اللفظ على المذهب الذي يرى أن الحقوق -شيمة اللغات والعادات- هي نتاج إبداعي جماعي غير واعٍ وغير إرادي، إبداع يتناهى في لحظة انصباب الفكر عليه، =

يُعتبر هذا المفهوم من أبرز المفاهيم التي تشكَّل عليها الفكر الغربي الحديث؛ حيث استخدمه لمدافعة النظام الكَنسي النصراني بإثبات تاريخية نصوصه، وقد نجحوا فيما أرادوه؛ إذ دين محرّف كالنصرانية لم يتكفل الله بحفظه لا غرابة أن تكون هذه نتيجته؛ ولكن الفكر الغربي لم يتكلف عناء البحث عن غيره من الأديان، بل رفضوا الدين كليًّا، وانتقلوا إلىٰ طور الفلسفة الحديثة بإطارٍ معرفي جديد قائم علىٰ التاريخيّة.

فبسبب إمعانِ الكنيسة وإفراطها في الخيالات والأساطير، دون مراعاة واقع الناس وحاجاتهم؛ كانت ردة الفعل أن ظهر الإلحاح علىٰ الوعي بالتاريخ الواقعي الملموس، ثم تجاوز ذلك إلىٰ بناء المعرفة أساسا من داخل الإنسان وواقعه، دون أن تُفرض عليه المعرفة من خارجه بعيدًا عن واقعه (أي: الدين والله!!)[1].

إذن جوهر مفهوم التاريخية هو: الانطلاق من تاريخ الإنسان الأرضي لبناء منظومة حياته.

= ولا يمكن لاحقًا تبديله صراحة ولا فهمه وتأويله بطريقة أخرىٰ غير طريقة دراسته التاريخية". موسوعة لالاند الفلسفية (٢/ ٥٦١).

٢- "هو فكر قائم علىٰ هدم النظام المعرفي القديم، والبحث عن نظام جديد". نقد الحداثة لمؤلفه آلان تورين ترجمة أنور مغيث (ص٩٠).

(١) حكمة الغرب لبراتراند رسل ترجمة فؤاد زكريا (٢/ ١٩).

ولكنه -كغيره من المفاهيم الغربية- مرّ بمراحل تمخَّض فيها حتىٰ استقرّ علىٰ هذا، **ويمكننا تلخيص تلك المراحل في مرحلتين:**

١- مرحلة ما قبل الحداثة؛ حيث كان البحث فيها عن حقيقةٍ مطلقةٍ يشترك في اليقين بها النوع الإنساني ويبني عليها منظومة حياته.

٢- مرحلة الحداثة وما بعد الحداثة؛ والتي انقلبوا فيها علىٰ أعقابهم وصاروا ينادون بنقيض ما دعوا إليه أولا، فقد كانت جهودهم متجهة لإبطال إمكانية الوصول إلىٰ حقائق مطلقة، وأن ليس ثَمّة سوىٰ تأويلات يتحكم فيها التاريخ الواقعي ولا ثبات للطبيعة البشرية(١).

إذن التاريخية تذهب إلىٰ استحالة إدراك الحقائق المطلقة؛ لأنه لا يمكن التعبير عنها دون تأثير الرؤية الذاتية عليها؛ فلا يمكننا الوصول إلىٰ الموضوعية؛ وبناء عليه لا بد من مقاطعة التراث الماضي؛ لأنه متأثر بعصره ومرتبط بتاريخه!!

وفي ظلّ إنكار الحقيقة المطلقة، والقول بالنسبية لا يمكننا بناء حقائق أو الكشف عنها؛ وهي النتيجة الحتمية لمعتنقي التاريخية؛ حيث أصبح همُّهم هو رصد الإشكالات وصياغتها، والحفر

---

(١) ينظر: موقف الفكر الحداثي العربي من أصول الاستدلال في الإسلام (ص٨٦)، ويشهد له تعريف موسوعة لالاند الفلسفية المذكور آنفا.

والهدم والتقويض دون بديل، والعجيب أنهم يعتبرونه سر إبداع الفكر الحداثي[١]!!

وعندئذ ليس ثمة إلا الفوضىٰ والدّمار والضياع للبشرية.

فليس لنا عند نفي الحقيقة المطلقة والالتزام بلوازمه إلا أن نتقبّل كل شيء ولا نرفض أي شيء، إذ كلّ شيء نسبي!!

بل وأن نشك في كل شيء، وألا نؤمن بشيء، وينتهي بنا الحال إلىٰ العدمية والعبثية والفوضوية[٢].

وأما فكرة عدم ثبات الطبيعة البشرية فهي مبنية علىٰ الخلط بين الجوهر والمتغير، وليس هو جديدا علىٰ البشر، بل قد خلط بينهما اليونانيون من قبل، وكان سببا لاضطراب مقالاتهم وابتعادهم عن الاهتداء للحق[٣].

ولكن ما حصل لهم في الحقيقة إثباتُ عجز الإنسان وضعفه، فقد زعم فلاسفةُ النهضة الذين سيطرت عليهم النزعة الإنسانية إمكانيةَ استقلال الإنسان بصنع واقعه وسيطرته علىٰ العالم،

---

(١) ينظر: التاريخ والحقيقة لدىٰ ميشيل فوكو لـ د. السيد ولد أباه (ص ١٧).

(٢) ينظر: تاريخ الفلسفة بنظرة عالمية لـ (كارل ياسبرز) ترجمة: د.عبد الغفار مكاوي (ص ٤٦)، اللغة والمجاز لـ د.عبد الوهاب المسيري (ص١٣٨).

(٣) ينظر : قصة الفلسفة اليونانية لأحمد امين وزكي نجيب محمود(ص٤١ وما بعدها).

ولما انكشفت لهم الحقيقة وانكشف لهم عجز الإنسان وتأثره بظروف تاريخه، أنكروا الحقائق المطلقة، وزعموا نسبية العلوم والمعارف كلها، وعدم وجود موضوعية غير متأثرة بالذاتية.

وهو ما يؤكّد لنا حاجة الإنسان وافتقاره لإلهه حتىٰ للوصول إلىٰ الحقائق فضلا عن غيره من الأمور، وأن لا محيد عن الخالق المتعالي علىٰ التاريخ[(١)].

وبدل أن يعتبر الحداثيون بهذا، انجرّوا وراءَ أفكارهم تلك، وراحوا يطوّعون الفكر الإسلامي ونصوصه لها، وهذا ما سنتناوله في المطلب القادم بإذن الله.



---

(١) ينظر: موقف الفكر الحداثي العربي من أصول الاستدلال في الإسلام لـ د. محمد حجر القرني (ص٨٧).

❁ **دخول مفهوم التاريخية إلى الفكر الإسلامي:**

أسقطَ الفكر الحداثي العربي هذا المفهوم -مفهوم التاريخية- علىٰ الفكر الإسلامي، منجرّين في ذلك وراء فلسفات الغرب؛ زعما أن إثبات تاريخية النص القرآني هو رهن التطوّر والنهضة وجوهر الإصلاح الذي ينقل الفكر الإسلامي إلىٰ الحداثة كما حصل للغرب!

اقرأ للعروي وهو يقول: "إن المثقفين يفكرون حسب منطقين؛ القسم الأكبر منهم حسب الفكر التقليدي، والقسم الباقي حسب الفكر الانتقائي، وإن الاتجاهين يوصلان إلىٰ حذف ونفي العمق التاريخي... لقد قلنا: إن الطريق الوحيد للتخلص من الاتجاهين معًا هو الخضوع للفكر التاريخي بكل مقوماته"(١).

واقرأ أيضا لهاشم صالح حيث يقول: "الرؤية الجديدة للدين والعالم يمكن أن تنتصر علىٰ الرؤية القديمة حتىٰ ولو كانت راسخة الجذور في العقلية الجماعية منذ مئات السنين. ولكنها لن تنتصر إلا بعد تفكيك العقلية القديمة واقتلاعها من جذورها عن طريق تبيان تاريخيتها ونزع القداسة عنها"(٢).

---

(١) العرب والفكر التاريخي لعبد الله العروي (ص٢٠٥).

(٢) مدخل إلىٰ التنوير الأوروبي لهاشم صالح (ص ١٠).

وأما محمد أركون فقد صرح بأن هذا هو غايةُ جهوده الفكرية! حيث عبّر عنه بقوله: "توضيح وتبيان تاريخية العقل الخاصة بتلك الحركة الثقافية التي أدت إلىٰ اعتبار الشريعة وكأنها التعبير الموثوق عن وصايا الله وأوامره"!!

ومنهجهم في إثبات تاريخية النص القرآني: ممارسة الضغط المتزايد للحداثة علىٰ المجتمع المسلم؛ لنزع التقديس والأسطورية المكنونة في صدور المسلمين للنص القرآني!! حتىٰ يتساءل المجتمع بنفسه عن تاريخية النص القرآني، ويضعه تحت مجهر النقد العلمي انطلاقا من ذلك(١).

إذن يُعتبر التعظيم والإجلال الذي يكنّه المسلمون للقرآن عقبةً كؤودًا أمام الحداثة يجب طمسه!!(٢).

ويكون ذلك بالبحث عن "كيف تشكُّله لأول مرة؟ وضمن أيَّةِ ظروف؟ وما علاقته بالظروف التاريخية التي ظهر فيها؟"(٣).

ولا يُقصَد بهذا إثبات حجية القرآن أو قصّة نزول الوحي مثلًا

---

(١) ينظر: الفكر الأصولي واستحالة التأصيل نحو تاريخ آخر للفكر الإسلامي لمحمد أركون (ص٦٤-٧٧).

(٢) ينظر: الأنسنة والتأويل في فكر محمد أركون لمؤلفه كيحل مصطفىٰ (ص ٢٦٤).

(٣) القرآن من التفسير الموروث إلىٰ الواقع الديني لمحمد أركون (ص٥٣).

كما فعل علماء الإسلام وإنما هو انطلاق من فلسفة الجدل الهيغلي[١]؛ حيث يعتبر النص القرآني منتَجًا ثقافيًا!! ناشئًا عن الجدل بين النص والواقع الثقافي خلال فترة تزيد على عشرين عاما، والنص القرآني على حدّ زعمهم مرَّ بطورَين في ظل هذه العلاقة الجدلية بين النص والواقع؛ ففي المرحلة الأولى والتي سمَّوها مرحلة التكون كان النص مستمِدًّا من الواقع الثقافي ومنتَجًا من منتجاته، بينما في المرحلة الثانية وهي مرحلة الاكتمال صار النص مصدرًا للثقافة ومُنتِجًا لها[٢]!!

وهذا ما يعبرون عنه بتشكيل الواقع للنص ذاته، يقول عنها هاشم صالح: "ونقصد بالأرخنة هنا الكشف عن تاريخية الخطاب القرآني عن طريق ربطه بالبيئة الجغرافية والطبيعية

---

(١) وملخص فكرة الجدل الهيغلي: أننا في هذا العالم نعيش صراعًا بين قضايا ونقائضها، فنبدأ بتناول فكرة ما، وعندما نكتشف نقائصها نتبنى نقيضها، ثم نكتشف عيوبا في هذا النقيض كذلك، فندمج بين إيجابيات الفكرة ونقيضها في فكرة ثالثة، ثم هذه الفكرة الثالثة تكشف عن متناقضات جديدة، فينشأ من جديد موضوع ونقيضه، ثم يرتفع هذا التناقض بينهما في تآلف جديد، وهكذا دواليك، حتى نصل إلى الفكرة المطلقة. ينظر: الموسوعة الفلسفية المختصرة (ص٢٩٩). وللاستزادة ينظر: مقال فلسفة التاريخ عند الفيلسوف الألماني هيجل على الرابط التالي:

http://www.alukah.net/culture/0/80282/#ixzz4bqmaFbgV

(٢) ينظر: مفهوم النص لنصر حامد أبو زيد (ص ٢٤ وما بعدها).

والبشرية القبائلية لشبه الجزيرة العربية في القرن السابع الميلادي... البحث التاريخي الحديث يثبت أن القرآن مرتبط بظروف عصره وبيئته؛ فألفاظه ومرجعياته الجغرافية والتاريخية تدل علىٰ ذلك" ويحتجون لذلك بالآيات التي تتحدث عمّا يختصُّ بعصر نزوله؛ كالحديث عن الروم والفرس والإبل والعبيد والمجادلات مع قريش وأهل الكتاب.

ويؤيدونه أيضا بأن من طبيعة اللغة أن يكتنفها الغموض بعد مضي برهة من الزمن، وكل منتج ثقافي مرتبط بلغة عصره وزمنه؛ ولذا كل منتج ثقافي يختص بتاريخه، وهذا ملحوظ فيمن يقرأ القرآن ولا يفهمه مع أنه عربي، لأن لغة القرآن قد اكتنفها الغموض!![(١)].

بيد أن الفكر الحداثي لا يقف عند هذا الحدّ في تعامله مع النص القرآني، بل يتجاوز ذلك إلىٰ البحث عمّا يُعبِّر عنه بـ(فكر صاحب النص!!) في مجاله التاريخي وبكل أبعاده الثقافية والسياسية والاجتماعية والبحث في علاقته بالنص! ليتوصل بذلك إلىٰ فهم جذور النص ومنشئه أو ما يسمونه (جينالوجيا النص القرآني) ويحدد وظيفة النص![(٢)].

---

(١) ينظر: تعليق هاشم صالح علىٰ كتاب محمد أركون (القرآن من التفسير الموروث إلىٰ نقد الخطاب الديني) (ص ١٤)، وينظر: مقال (شعار تاريخية النص ليس هو الحل) لمحمد عابد الجابري.

(٢) ينظر: تاريخية الفكر العربي الإسلامي لمحمد أركون (ص ٢٢٩ وما بعدها)، الفكر الإسلامي قراءة علمية له أيضا (ص ١٢٩).

ولما سبق بيانه يرىٰ الفكر الحداثي أنه تجب علينا القطيعة المعرفية عن الماضي كله، يقول العروي: "لم يعد هناك بداهة جاهزة ضرورية منطقية يركن إليها الجميع تلقائيا وتتماسك بها الأفكار. لابد إذن من امتلاك بداهة جديدة، وهذا لا يكون إلا بالقفز فوق حاجز معرفي: حاجز تراكم المعلومات التقليدية. لا يفيد فيها أبدا النقد الجزئي، بل ما يفيد هو طي الصفحة، وهو ما أسميته ولا أزال أسميه بالقطيعة المعرفية"(١).

وبذا يستطيع الفكر الحداثي تجاوز النص القرآني مبنىٰ ومعنىٰ(٢)، وإلغاء مرجعيته في عصرنا هذا؛ لأنه مختص بتاريخه، وعلىٰ أقل تقدير يبقىٰ القرآن كتابا للتلاوة والتبرك، أو جزءا لا يتجزأ من التراث الثقافي للأمة!!



---

(١) مفهوم العقل لـ عبد الله العروي (ص١٠)، وينظر: تاريخية الفكر العربي الإسلامي لـ محمد أركون (ص٢٩٤)، الفكر الإسلامي نقد واجتهاد له أيضا (ص٢٣٢).

(٢) ينظر: الفكر الإسلامي نقد واجتهاد لمحمد أركون (ص ٢٢٩).

❁ بطلان نظرية تاريخية النص القرآني:

لا غرو أن القرآن نزل في ظروف وسياقات تاريخية معينة، ونزل لتاريخ الإنسان وخاطب واقعه؛ ليرتفع به من واقعه وميوله البهيمية السفلية إلىٰ الحال العلوي الأقوم والأمثل، ويهديه به إلىٰ الحق والصراط المستقيم، ويصلح به حال الدنيا والآخرة.

إلا أن نزوله كذلك لا يُقصد به مخاطبة مَن نزل في زمنه خاصة، وإنما الخطاب فيه للعالمين في أي مكان وأي زمان وأي تاريخ فهو متعال علىٰ التاريخ؛ ذلك أن القرآن ينطلق من أنّ الطبيعة البشرية واحدةٌ لا تتغير -وإن تغيّر تاريخه وعصره-، فلا عبرة بتغيّر الجيل الذي نزل فيه القرآن ولو مرّت به آلاف السنين، وهذا من صور إعجازه.

ولأنّ الله الذي خلق الإنسان هو الذي خاطبه بهذا النص القرآني، فكيف يتناقض خلقه وأمره؟! كما قال الله تعالىٰ: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾﴾ [الفرقان:١، ٢] ثم أخبر ﷻ عمن يزعم أن القرآن أساطير خاصة بالأقدمين وبتاريخ قديم، وردّ علىٰ هذه الدعوىٰ بقوله: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ

وَٱلْأَرْضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الفرقان:٥، ٦]، فليس القرآن مرتبطا بتاريخ بشري، بل هو وحي من الله الأول الآخر الظاهر الباطن خالق السماوات والأرض ومن فيهما.

ولأن الطبيعة البشرية واحدة لا تتغير، يأمرنا الله ﷻ بالاعتبار بحال من سبق من التاريخ القديم، ويبين لنا أن مصير المؤمنين واحد ومصير الكافرين واحد وإن تعددت تواريخهم، قال تعالىٰ: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي ٱلْأَلْبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يوسف:١١١]؛ لأن طبيعة المؤمنين والكافرين ومآلاتهم واحدة لا تتغير وإن تغيّرت أزمانهم وأماكنهم.

وكـذلك أحـوال الكفـار مـع أنبيـائهم لا تتبـدل ولا تتغيـر وإن تعددت تـواريخهم ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾ [الـذاريات:٥٢، ٥٣]، فهنـا يبـيّن الله تعـالىٰ أن الطغيـان طبيعـة المترفـين؛ فـإنهم لغِنـاهم الـدنيوي لا ينصاعون لأمر ربهم ورسله؛ ظنّا منهم أنهم مستغنون عـن خـالقهم ومَـن إليـه يرجعـون، قـال تعـالىٰ: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴾ [العلق:٦، ٧].

فهل يتغيّر التكذيب بالرسل والكفر برب العالمين والطغيان بتغير الأزمان والأمكنة؟ هل يختلف الإيمان بالله ورسله وكتبه وقدره واليوم الآخر في تاريخ بشري عن غيره من التواريخ؟

بل تأمل أخي طالب الحق في مقاصد القرآن العظيمة ومسائله المتعالية والمتجاوزة للتاريخ، وهل تتناسب مع هذه الفكرة الماركسية الاعتباطية، اقرأ قول الله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء:٩] وقوله تعالىٰ: ﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ ﴾ [فصلت:١-٤]، وقوله تعالىٰ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ ﴾ [الكهف:١، ٢]، وقوله ﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ ﴾ [هود:١]، فهل هذه المعاني القرآنية العظيمة مرتبطة بعصر النبي ﷺ وتاريخه، أليست هذه المعاني قائمة من قبل زمن النبي ﷺ وفي زمنه وحتىٰ زماننا، بل وحتىٰ قيام الساعة؟!

بل إن الله ﷻ تحدَّىٰ الإنس والجن ولو تكاتف بعضهم مع بعض أن يأتوا بمثله، وهذا التحدي متجاوز لحدود البشر التاريخية ومتعال عليها وقائم حتىٰ اليوم وإلىٰ يوم القيامة، يقول

تعالىٰ: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾ [الإسراء:٨٨]، فهل استطاع أحد الإتيان بمثله؛ لِنزعمَ أن تاريخ هذا التحدي قد انتهىٰ؟!

وأيضا أخبر الله تعالىٰ أنّ نبيه محمدًا رحمة للبشرية، بل والعالم أجمع بقوله تعالىٰ: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء:١٠٧]، فمن ذا يخصّص فضل الله ورحمته وقد عمّمها للبشرية جمعاء؟!

إذن أنزل الله القرآن ليرتقي بالإنسان عن واقعه وتاريخه الحيواني إلىٰ الفضائل السماوية، ولينبهه ليعود إلىٰ وعيه، ويوازن بين الوحي وواقعه التاريخي الخاص، ولكن الفكر الحداثي يقلب القضية رأسا علىٰ عقب، ويجعل لما فوق التاريخ أحكام التاريخي!! وبدل أن يرتفع بالإنسان في درجات الفضيلة ينزل بالنص القرآني إلىٰ وحل التاريخية، كما نص عليه حسن حنفي بقوله: "وكثير من الحلول لم تكن في بادئ الأمر معطاة من الوحي، بل كانت مقترحات من الفرد أو الجماعة ثم أيدها الوحي وفرضها!"[(١)].

---

(١) التراث والتجديد لحسن حنفي (ص ١٣٥ وما بعدها).

ويريد تطويع النص القرآني للمنطق الأنثربولوجي- التاريخي الحديث، وهو المنطق الذي يعتمد الواقع التاريخي الذي تنتمي إليه جماعة ما ليحدد ما تريده من النص بما يتوافق مع المشروطيات التاريخية(١).

وبدل أن ينتمي الفكر الحداثي إلىٰ كلام الله ورسوله ويسلِّم له، اتّخذ من هذه الفكرة الماركسيّة التي تدعي "أن الواقع هو من يصنع الفكر وليس الفكر هو من يصنع الواقع"(٢) مرجعا له!!

وكان مقتضىٰ الانطلاق من التاريخية أن يُنظر في العوامل والظروف التاريخية التي تخص الفكر الإسلامي والنص القرآني ثم يُتخذ لها المنهج الذي يناسبها، لا أن نأخذ منهجا مختصا بفكر آخر لنسقطه علىٰ الفكر الإسلامي إسقاطًا!

ولكن الفكر الحداثي العربي لا يريد لنا إلا أن نكون مستهلكين لمنتجات الغرب حتىٰ في مناهج التفكير والنقد!! حيث يعيد إنتاج الفعل الحداثي الغربي نفسه تقليدا لأطواره وأدواره، ويريد أن يطبقه علىٰ الفكر الإسلامي!(٣).

---

(١) ينظر: نحو تاريخ مقارن للأديان التوحيدية لمحمد أركون (ص ٢٨٧).

(٢) أصول الفلسفة الماركسية لجورج بوليتزر ترجمة شعبان بركات (ص ٢٧٥ وما بعدها).

(٣) ينظر: تجديد المنهج في تقويم التراث لـ د. طه عبد الرحمن (ص١٩ وما بعدها)، روح الحداثة لـ د. طه عبد الرحمن (١٧٧ وما بعدها).

ومع اعترافهم بأن النظام المعرفي الذي ينتمي إليه الإنسان هو المسؤول عن توجيه تفكيره، إلا أنهم لا ينفكّون يتخذون هذه الفكرة الماركسية نظاما معرفيا وإليه يحاكمون الأمور ولو كانت في كتاب الله ورسوله؟!

فلماذا تكون هذه الفكرة مسلّمة وهي محض تحكم ومصادرة؟! بل يكذبها التاريخ نفسه، فإن السنة الكونية التي أقام الله التاريخ عليها قائمة علىٰ أن الفكر هو من يصنع الواقع.

أليست دعوات الرسل كانت خروجا علىٰ الواقع وتصادما معه وإعادة لتركيبة المجتمع وصياغته؟ فأين الواقع الذي صنعها؟ أليس المفكرون والفلاسفة في عصور التاريخ البشري كانوا خارجين عن حدود واقعهم وزمانهم بما طرحوه من أفكار؟ فأين الواقع الذي صنعهم؟

ولم لا يُنظر إلىٰ مفهوم التاريخية علىٰ أنه حالة استثنائية بسبب الأزمات الاجتماعية والظروف التاريخية التي كان يعيشها الفكر الغربي حين ظهوره؟

ولماذا يبقىٰ هذا المفهوم ثابتا مع دعوىٰ عدم إمكانية ثبات المفاهيم والعلوم ونسبيتها؟ بينما تلغىٰ الحقائق بدعوىٰ تاريخيتها؟![1].

---

(١) موقف الفكر الحداثي العربي من أصول الاستدلال في الإسلام لـ د.محمد حجر القرني (ص١٠٨).

ثم إن الفكر الحداثي لا يأبه أن يصرّح بأن الإسلام والقرآن كالنصرانية وكتابها! ولذا يتعاملون مع النص القرآني بذات المنهج الذي تعامل به الغرب مع الكتاب المقدس؛ لأن "الإسلام كبقية الأديان في الخضوع للتاريخية التي خضعت لها المسيحية؛ إذ إن الإسلام لا يختلف عن المسيحية في كونه يقع ضمن الإطار المعرفي للقرون الوسطى ولأن الإسلام عنده نتاج الممارسة التاريخية للبشر، وبالتالي فهو يتطور ويتغير، ويخضع للتاريخية مثله مثل أي شيء على وجه الأرض، إنه ناتج عن الممارسة التاريخية لفاعلين اجتماعيين شديدي التنوع.. كما أنه ناتج عن فعل الشروط التاريخية التعقيد عبر الزمان والمكان"!![1].

ومن الغريب أن الحداثيين العرب يدّعون تاريخية النص القرآني مع أنهم يعترفون -كما اعترف أربابهم الغربيون- أن الدين من الأمور المتجاوزة للتاريخ وغير خاضع له[2].

---

(١) ينظر: قضايا في نقد العقل الديني لمحمد أركون (ص ٣٢٦).

(٢) حيث قال محمد عابد الجابري في مقال (شعار تاريخية النص ليس هو الحل): " أما "الأشكال العليا للوعي"، وهي أساسا الفن والدين والفلسفة، أي ما عبر عنه هيجل بـ"الروح المطلق" فقد لاحظ ماركس نفسه أنها لا تتحد بالوضع الاجتماعي بهذه الصورة بل هي تمتلك استقلالا يجعلها تعلو على المجتمع وأطره. وفي هذا المعنى كتب يقول: "إن الصعوبة ليست في فهم كيف أن الفن والملحمة الإغريقيين كانا مرتبطين ببعض أشكال =

وأما تمسُّكهم بما في القرآن من أمور مرتبطة بعصر نزوله؛ كالآيات السببية والكلام عن الروم والفرس والإبل والعبيد والمجادلات مع قريش.

فإن الأصل في نزول القرآن أنه ابتدائي، وأما السببي فمع كونه أقلّ فإننا لا ننكر أن هناك علاقة بينه وبين الواقع الذي نزل فيه، ولكن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فهي مرتبطة بنوع الحادثة لا عين الحادثة التي نزلت فيها، وأما الحادثة المعينة فليست سوىٰ مناسبة للوصول إلىٰ الحكم التشريعي الذي يعمّ كل الأمة؛ ولذا يستفيد منها العلماء، ويستنبطون منها الأحكام، ويقيسونها بغيرها وهذا من أوجه إعجاز القرآن.

قال الإمام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في سياق كلامه عن قول العلماء "هذه الآية نزلت في كذا" قال: "فالذين قالوا ذلك لم يقصدوا أن حكم الآية مختص بأولئك الأعيان دون غيرهم؛ فإن هذا لا يقوله مسلم ولا عاقل علىٰ الإطلاق، والناس وإن تنازعوا في اللفظ العام

= التطور الاجتماعي، بل إن الصعوبة هي في فهم لماذا لا يزالان يُوَلِّدان فينا متعة فنية ويحتفظان بقيمتهما من بعض الوجوه، كمعيار ونموذج لا مثيل لهما". ويمكن بسهولة أن نقول الشيء نفسه عن النص القرآني: "إن الصعوبة ليست في فهم كيف أن القرآن وسيرة النبي كانا مرتبطين ببعض أشكال التطور الاجتماعي، بل إن الصعوبة هي في فهم لماذا لا يزالان يُوَلِّدان فينا متعة فنية (بلاغية) ويحتفظان بقيمتهما من بعض الوجوه، كمعيار ونموذج لا مثيل لهما".

الوارد على سبب هل يختص بسببه أم لا؟ فلم يقل أحد من علماء المسلمين أن عمومات الكتاب والسنة تختص بالشخص المعين، وإنما غاية ما يقال: إنها تختص بنوع ذلك الشخص، فيعم ما يشبهه ولا يكون العموم فيها بحسب اللفظ.

والآية التي لها سبب معين إن كانت أمرا ونهيا فهي متناولة لذلك الشخص ولغيره ممن كان بمنزلته، وإن كانت خبرا بمدح أو ذم فهي متناولة لذلك الشخص وغيره ممن كان بمنزلته أيضا. ومعرفة سبب النزول يعين على فهم الآية فإن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب"[1].

وإن سلمنا جدلا بأن الآيات السببية تشكّلت وتكوّنت بسبب الواقع وأنها تؤيد هذه الفكرة الماركسية، فماذا عن الآيات التي نزلت تخبر عن أمور ستقع في مستقبل التاريخ، فكما أن في القرآن نصوصًا نزلت لأسباب وأحداث واقعية سبقت نزولها، فعلى العكس أيضا فيه نصوص نزلت تتنبأ بأمور ووقائع تقع في مستقبل التاريخ، فهل كانت تلك النصوص أيضا من صنع الواقع لها؟!

انظر مثلًا إلى إخبار الله تعالى بانتصار الروم على الفرس، بعد أن فرح مشركو قريش بانتصار الفرس، فأخبر الله تعالى عن فرح المسلمين عما قريب بانتصار الروم أتباع الدين الإلهي على الفرس،

---

(١) مجموع الفتاوى (١٣/ ٣٣٩).

يقول الله تعالىٰ: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥﴾ [الروم:١-٥]، بل قد تحدىٰ الصحابة المشركين علىٰ وقوعه وراهنوا علىٰ ذلك(١).

فهل كانت هذه النصوص وأمثالها من صنع الواقع ومستمدة من الثقافة القرشية؟!

فإذا ما تجاوزنا تلك العصور ونظرنا فيما يسمّىٰ بالعصر الحديث، ألم يكتشف الإنسان فيه حقائق علمية كثيرة منصوص عليها في القرآن قبل مئات القرون؛ كعلم الأجنة وغيره من المعجزات القرآنية الخالدة؟!

وأما دعوىٰ أن طبيعة اللغة أن يكتنفها الغموض بعد زمن، فإن الأصل في ألفاظ اللغة الثبات، وحفظ الله سبحانه لكتابه حفظ يشمل مبانيه ومعانيه، والقرآن -كما قال ابن عباس- "علىٰ أربعةِ أوجهٍ: وجهٌ تعرفه العربُ من كلامها، وتفسير لا يُعذر أحدٌ بجهالته، وتفسير يعلمه العلماء، وتفسير لا يعلمه إلا الله تعالىٰ ذكره"(٢).

---

(١) ينظر: النبأ العظيم لـ د. محمد عبد الله دراز (ص: ٧٨).

(٢) تفسير الطبري (١/ ٧٥).

وكيف يتفق هذا وقول الله تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ﴾ [النحل:٤٤]؟ ألم يبين النبي ﷺ القرآن والله ﷻ أرسله لذلك؟! ألم يقتف الصحابة والسلف أثر نبيهم في تبيان معاني دستورهم خلال القرون السابقة؟!

فالحمد لله الذي سخر للإسلام علماء تبصروا لهذه القضية منذ فجر الإسلام، فألفوا كتب الغرائب والشروح وخدموا النص القرآني والسنة أيما خدمة لتوضيح معانيها، ولكن مرام الفكر الحداثي مما ذكر هو القطيعة المعرفية مع كل تراثنا الإسلامي السابق؛ بدعوىٰ أن لغتها غامضة لا يمكننا التعامل معها!!

فيكون النص قد انتهىٰ تاريخه؛ لأنه مرتبط بذلك السياق التاريخي الذي نشأ فيه ذلك المجتمع، وأما المجتمعات الأخرىٰ فلها تعبيراتها التاريخية الخاصة بها!!

بل كيف يجتمع القول بتاريخية النص القرآني مع الإيمان بأنه كلام منزل من عند الله رب العالمين لخلقه بشيرا ونذيرا؟! فإن الظروف التاريخية التي يزعمونها إنما هي مختصة بالبشر وإنتاجات البشر!!

بل يعظم الهول علىٰ المؤمن بالله العظيم إذا عرف تصور الفكر الحداثي لـ(الله) ذاته، حيث يعتقد أنها فكرة يصنعها التاريخ وتتشكل من خلال الواقع -تعالىٰ الله عما يقولون- ولا يعتقدون كما نعتقد أنه موجود حقيقة حي قيوم متصف بالصفات العلىٰ.

كما عبر عن ذلك أركون بقوله: "يمكن القول بأن التصور الحديث لله يتجلى في الأمل في الانفتاح على أفق الأمل: الأمل بالخلود، الأمل بالحرية، الأمل بالعدالة، الأمل بتصالح الإنسان مع ذاته. هذا هو الله بالنسبة للعالم الحديث والتصور الحديث"(١).

ولا نشك أنه بهذا يتكلم بلسان آبائه أمثال نيتشه الذي قال: "في العالم ليست هناك حقائق. هناك فقط تأويلات"(٢)، ونجده يبرر مقولة نيتشه التي زعم فيها موت الإله فيقول: "عبارة قاسية وصادمة للحساسية الجماعية لجماهير المؤمنين كهذه يجب ألا تخيفنا كثيرًا؛ لأنها لا تعني رفض الله أو رفض الإيمان بالله، وإنما تعني موت جينالوجيا معينة أو طريقة لغوية معينة للتعبير عن وجود الله. فالله حي لا يموت ما يموت ما هو تاريخي حقا، هو تلك التصورات التي يشكلها البشر عبر مراحل تاريخية مختلفة عن الله"(٣).

وهنا نتذكر وقفة العلماء مع الأوصاف العدمية والسلبية لله تعالى؛ لأنها تؤدي إلى إنكاره ﷻ في آخر المطاف.

ولذا استنفر أهل الحق طاقاتهم في صد هذا المنهج، وصد من تأثر به من منكري الصفات التي تنطوي في الحقيقة على إنكار ذات الله ﷻ(٤).

---

(١) قضايا في نقد العقل الديني لمحمد أركون (ص٢٨٢).
(٢) ينظر: فهم الفهم مدخل إلى الهرمنيوطيقا لـ د. عادل مصطفى.
(٣) قضايا في نقد العقل الديني لمحمد أركون (ص٢٨٢).
(٤) موقف الفكر الحداثي العربي من أصول الاستدلال في الإسلام لـ د.محمد حجر القرني (ص٢٧٨ وما بعدها).

❁ الخاتمة:

في ختام هذه الورقة اتضح لنا كيف أن مفهوم التاريخية ترعرع في ظروف تاريخية معينة للفكر الأوروبي سببت ظهوره، وأنه ليس سوىٰ إغراق للمجتمع في الماديات كردة فعل لمغالاة الكنسيين في الخيالات والأساطير والأوهام، ولكن الفكر الحداثي العربي أسقطه علىٰ النص القرآني إسقاطا دون مراعاة لنشأة مفهوم التاريخية ولا إحاطة بالقرآن وتاريخه وعلومه ومفاهيمه، حتىٰ توصَّل في آخر المطاف إلىٰ تجاوز النص القرآني مبنىٰ ومعنىٰ!! والانقطاع عن التراث الإسلامي والماضي بكل ما فيه؛ لأنه مرتبط بتاريخه القديم وظروف عصره!!

فإن أعرضنا عن تراثنا الإسلامي الأصيل، فإلىٰ أي فكر وثقافة وتراث ننتمي؟!

أنترك الانتماء إلىٰ كلام الله ورسوله وأتباعه، لنتَّجه إلىٰ كلام هيغل وماركس ونيتشه؟!!

ولنا فيما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ عبرة حيث يقول: "هؤلاء عمدوا إلىٰ ألفاظ مجملة مشتبهة تحتمل في لغات الأمم معاني متعددة، وصاروا يُدخلون فيها من المعاني ما ليس هو المفهوم منها في لغات الأمم، ثم ركبوها وألفوها تأليفًا طويلا بَنَوا

بعضَه على بعض، وعظموا قولَهم وهوَّلوه في نفوس من لم يفهمه... فإذا دخل معهم الطالبُ وخاطبوه بما تنفِر عنه فطرته، فأخذ يعترض عليهم، قالوا له: أنت لا تفهم هذا"(١).

وصلىٰ الله وسلم علىٰ نبينا محمد وآله وصحبه وسلم(٢).

---

(١) درء تعارض العقل والنقل (١/ ٢٩٥).

(٢) إعداد: عمار بن محمد الأركاني.



القــراءة الحداثيــة للــتراث..

الخلفيــات والمنزلقــات

تُعَدُّ الإفادة من التراث أو إقصائه إشكالية يعـاني منهـا كـل مـن يرتهن للواقع، فـإذا لـم يجـد مـا يسعفه في المـاضـي وأعـوزتـه آلياتـه التراثية، فإنـه لا محالـة سيتجه رأسـا إلىٰ تلـك المنجـزات التراثيـة الهائلـة؛ ليمـارس عليهـا نوعـا مـن التمويـه الثقـافي، بقصـد إعـادة الـدعوىٰ إلـىٰ القطيعـة المعرفيـة مـع الـتراث؛ ليـدَّعيَ أن المعرفـة التراثيـة ذات صبغة نفعيـة، تَشكَّلت عـبر مجموعـة مـن الأحـداث المدفوعة بصراع السلطة والنفوذ، ويتم تفسير كافة أنواع الخطـاب الـديني علـىٰ أنهـا مجـرد موازنــات سياسـية وحسـابات خاصــة، وتُتَرجم المواقـف الجهاديـة والاستنباطات الفقهيـة لعلمـاء الأمـة ورموز الإسلام علىٰ أنهـا مجـرد سعي وراء حظـوظ الـنفس، ويـتم ضـرب الثقـة بـالمنتج الفقهـي والعبـث بالجهـاز الـدلالي، ويـدفن التفسير الديني والأخلاقي لأي قيمة معرفية.

وفي هذا المقـال نسـلط الضـوء علىٰ الخلفيـات المشَكِّلة لهـذه الفكـرة نعقّبهـا برصـد المُنزَلَقـات التـي تـؤول إليهـا عـبر مسـارها التهويلي في قراءة الأحداث والاستنتاجات.

ونقصد بالقراءة الحداثية للتراث: الأنماط الفكرية التي ظهرت في عالمنا العربي والإسلامي محاوِلةً خَلقَ وِئَام بين الثقافة الإسلامية الدينية وبين الطرح الغربي الحديث؛ لتنتج خطابا دينيا متماهيا مع الثقافة الغربية في نظرتها للكون والحياة.

ولنبدأ بتوجيه العدسة إلىٰ الخلفيات الْمُشكِّلَةِ للفكرة من أجل إبرازها للقارئ في حلتها الحقيقية.

❁ الخلفيات المُشَكِّلَةِ للفكرة:

القارئ للمنتج الثقافي الحداثي يرىٰ **الخلفية العلمانية** الدافعة للطرح الحداثي من خلال عدة تشكلات في الخطاب الحداثي، أهمها:

أ- الموقف من الدين والأخلاق: فالعلمانية في أسسها الفلسفية تستبعد اعتبار الدين والأخلاق والإيمان محرِّكًا للتاريخ، بل تعتبر التاريخ محكوما بدوافع غريزية محضة ذات بعد سياسي مادي، والخطاب الديني والأخلاقي مجرد غطاء فوقي لإخفاء الدوافع الحقيقية للأحداث، وتركز العلمانية في خطابها علىٰ الحاضر واستبعاد الماضي، كما تدعو للتشكيك في الكتب المقدسة وفي كل ما هو ديني(١).

---

(١) ينظر: الحداثة وما بعد الحداثة لعبد الوهاب المسيري وفتحي التريكي (ص٨٧).

وقد اصطبغت القراءة الحداثية للنص بأغلب هذه المواصفات مُحَاوِلةً قطع الصلة بالتراث مُغَلِّبَةً للعقل على ما سواه من آليات التعامل مع النصوص، وقد صرح عبد المجيد شرفي أحد رواد المدرسة الحداثية بإخفاق جميع المحاولات التفسيرية للقرآن في إطار القداسة(١).

كما صرح الجابري بأن العائق الأكبر للعقل العربي أمام النهضة يكمن في السلطات الثلاث:

- سلطة النص.
- سلطة السلف.
- سلطة القياس.

وهذه السلطات الثلاث هي مُحَصِّلةُ النظام المعرفي الذي يُؤَطِّرُ الثقافة الإسلامية، ويحكم انتماءها وطبقا لرؤية الجابري "فإنه لا يمكن تغيير بنية العقل، وتأسيس بنية أخرى إلا بممارسة العقلانية النقدية على التراث الذي يحتفظ بتلك السلطات على شكل بنية عقلية لا شعورية"(٢).

---

(١) ينظر: في قراءة النص الديني لعبد المجيد الشرفي وآخرين (ص ٨٩).

(٢) بنية العقل العربي لمحمد عابد الجابري (ص ٥٦٨).



فالفكر العربي معيب عند هؤلاء؛ لأنه لا يستطيع ممارسة نشاط فعلي، فهو مقيد بمعطىٰ النص والإجماع والقياس، ومن ثم اتخذ الحداثيون من أَنْسَنَةَ التراث طريقا للإجهاز علىٰ الجهاز الدلالي، ومبررا للقراءة المتحللة للنصوص، فمضامين العلمانية ظاهرة في الخطاب الحداثي وفي مبرراته، وإن كان من فرق بين الحداثيين والعلمانيين، فهو في نوعية الهدم التي تُمَارَسُ علىٰ النصوص، فالعلماني يهدم الدين من الخارج، والحداثي يحاول هدمه من الداخل.

ب- **تطبيق التقنيات المعاصرة على النصوص:** فتطبيق آليات فلسفة الحداثة، كالمنهج التفكيكي، وتجاوز الأدوات العلمية التفسيرية هي إحدىٰ الخلفيات الْمُصَنِّعَةِ للفكرة الحداثية، ولذلك يفسرون جميع المظاهر السياسية والاجتماعية والدينية سلبا أو إيجابا؛ بحسب مسافتها من الحداثة، وأخذها بما تمليه التقنيات المعاصرة.

والمحصلة النهائية للنص كما تبلور في الغرب علىٰ يد مدارسه الفكرية تقوم علىٰ نزع القداسة عن جميع النصوص دينية كانت أو غير دينية، ثم إعمال التسوية بينها[1]، وإخضاعها لبعض العمليات اللغوية الشكلية الآلية التي تلغي حتىٰ وجود المعنىٰ العلماني في

---

(١) للاستزادة ينظر: الحداثة وما بعد الحداثة لعبد الوهاب المسيري وفتحي التريكي.

النص، ومن ثم يمكن أن يفسر النص بالشيء ونقيضه، ولا يكون هناك أي تفسير ملزما، باعتبار أن عملية التأويل عملية بشرية يقوم بها القارئ للنص وفق آلياته ومعتقداته، فالنص عند السلفي إطار ومرجع، وعند العلماني غطاء وسند، كما يقرر نصر أبو زيد(١).

وتظهر سمات التقنيات الحديثة عند الحداثيين في النقاط التالية:

◇ **العلمية**: ويقصدون بها أن يكون الواقع موضوعا للعلم، والعقل مقياسا للحقيقة.

◇ **قانون العلية:** ومعناه أن تتم أي عملية معرفية عبر التجربة والمنهج التجريبي، وكل ما لم يخضع للتجربة يكون الحديث عنه خرافة، أو أسطورة.

◇ **تأسيس المعرفة العقلية على النقد**، واستبعاد كل ما هو أسطوري ديني لا يستمد صدقه من الواقع، ويكون الموقف النقدي هو جوهر العقلانية الحديثة(٢).

فلذلك اعتبروا القول بإلهية النصوص يستلزم أن البشر عاجزون بمناهجهم عن فهمها، ويؤكد حسن حنفي على القول ببشرية النصوص فيقول: "وإذا كنا نتبنى القول ببشرية النصوص الدينية، فإن هذا التبني لا يقوم على أساس نفعي إيديولوجي

---

(١) ينظر: نقد الخطاب الديني نصر أبو زيد (ص ١٥٤).

(٢) ينظر: موقف الليبرالية العربية الحديثة من محكمات الدين (ص ٢٣٣).

يواجه الفكر الديني السائد والمسيطر، بل يقوم علىٰ أساس موضوعي يستند إلىٰ حقائق التاريخ، وإلىٰ حقائق النصوص ذاتها"(١).

ولذا فإنهم **يعتبرون القول بالنبوة تجهيل للإنسان وتعبير عن عدم قدرته علىٰ تفسير الحوادث**، وانطلاقا من هذا الطرح وافقوا سلفهم مقصدا وغاية، فتوصلوا إلىٰ أن النبوة لم تعد الحاجة إليها ملحة في عصور التقدم(٢)، "ويمكن تفسير الدين من داخله وتأسيسه علىٰ يقينه الذاتي كنظام مستقل، ومن ثم يصبح اللجوء إلىٰ ما هو خارج الطبيعة لا لزوم له"(٣).

إذن، القراءات الحداثية للنصوص علىٰ هذا ما هي إلا استمداد للنَّظَرِيَّاتِ المعاصرة؛ كالبنيوية(٤) والتفكيكية(٥)،

---

(١) نقد الفكر الديني (ص٢٠٦).

(٢) ولتأصيل مسألة ضرورة البشرية إلىٰ النبوة والأنبياء، أصدر مركز سلف للبحوث والدراسات ورقة علمية بعنوان (كم نحن بحاجة إلىٰ الأنبياء) ينظر:
https://salafcenter.org/1366/

(٣) مقدمة حسن حنفي لكتاب تربية الجنس البشري (ص ٦٧).

(٤) البنيوية منهجية تعود فكرتها إلىٰ العالم السويسري (فريديناند دي) فآراؤه في التفرقة بين اللغة والكلام والدال والمدلول وأولوية النسق علىٰ باقي الأسلوب كانت مؤسسة للبنيوية فهي تركز علىٰ المعطيات أكثر من النص وعلىٰ المحيط والدوافع أكثر من المعنىٰ ينظر: عصر البنيوية ترجمة جابر عصفور (ص ٢٩).

(٥) يصعب إيجاد تعريف دقيق لها لكن يمكن القول بأنها: منهجٌ فلسفي، يرىٰ أنه لا يوجد تفسير واحد للمعنىٰ في النص، بل تفسيرات غير محدودة، =

ويقوم هؤلاء المقلدون بتطبيق هذه النظريات دون فحص أو تنقيح أو مراعاةٍ لاختلاف البيئات ثقافة وحضارة.

جـ- **الخلفية الاستشراقية:** فأصحاب مشروعات إعادة التاريخ وقراءة التراث الإسلامي مجرد نسخ مُحَدَّثَةٍ للقراءة الاستشراقية للثقافة الإسلامية، وقد ظهر تأثرهم بالقراءة الاستشراقية في جميع تشكلاتهم الفكرية، وأعمقهم طرحا أكثرهم موافقة للرؤية الاستشراقية وسيلة وهدفا، والأدهىٰ والأمر أنهم قلدوا القراءة الاستشراقية في أبرز سمة لها، وهي اعتبار الدين الإسلامي مستمدا من الثقافات المجاورة له، ولا يعدو كونه قراءة تفسيرية للديانات السابقة، كما يقرر المستشرق (ثيدور نولدكه) صاحب كتاب (تاريخ القرآن)(١).

وقد صرح الجابري بنفس نتائج المستشرق (ثيدور) فيقول: "ورثت الثقافة العربية الإسلامية كل علوم المعقول واللامعقول في الثقافات الأخرىٰ"(٢).

= فبعد أن ظهرت التفكيكية إلىٰ الوجود، أصبحت النصوص عُرضةً لنوع جديد من التحليل والتفسير، ينظر: المصطلحات الأدبية الحديثة (ص١٠٣).

(١) ثيدور نولدكه (١٨٣٦-١٩٣٠) مستشرق ألماني له كتاب تاريخ القرآن وهو يعد عمدة المستشرقين في دراساتهم، وهذا الكتاب تَرجمهُ وردَّ عليه المفكر الدكتور: رضا محمد الدقيقي في كتابه المعروف بـ (الوحي إلىٰ محمد بين الإنكار والتفسير النفسي)، وقد طبع في ثلاثة مجلدات ينظر:

https://ar.wikipedia.org/wiki

(٢) نحن والتراث محمد عابد الجابري (ص ٣٠٤).

ويتمـاهىٰ الجـابري مـع الرؤيـة الاستشـراقية ليـبرهن علىٰ تشـكيلها لثقافتـه، فيقـرر أن الكتـاب والسـنة وعلومهمـا أُخـذا مـن المـوروث الجـاهلي، فيقـول: "لـيس هنـاك مـوروث قـديم يمكـن عزله عما عبرنا عنه بالفكر الديني العربي والذي نقصد به الكتاب والسنة، كما يمكن أن يُقرآ داخل مجالهما التداولي ويتحدد أساسا بالموروث الجاهلي أي: بنوع الثقافة ومستوىٰ الفكر السائدين في مكة والمدينة علىٰ عهد النبي ﷺ"[(١)].

وهـذا الموقـف المعتـبر للكتـاب والسـنة وآلياتهمـا علىٰ أنهمـا تأثرا بالموروث الجـاهلي لا يخـص الجـابري، بـل هـو عنـد جميـع رواد المدرسة الحداثية، ويتم توزيعه علىٰ جميع العلـوم الإسـلامية بما في ذلك الأخلاق واللغة.

فهذا أحمد أمين يرىٰ أن القواعد النحوية كانـت علىٰ غـرار مـا وجد في الآداب السريانية في العراق وأنها مستمدة منها[(٢)]، وبالرغم من وضوح الجانب الأخلاقي في القرآن إلا أن الجابري يصـر علىٰ تجـاوز الـزمن لـيحط رحلـه في مرحلـة متـأخرة زمنيـا، ويَـدَّعِي أن التـأليف في الأخـلاق مـا هـو إلا تـأثر بـالفكر اليونـاني والفارسـي، ومجـاراة للأمـم السـابقة[(٣)]، وهـم في ذلـك تبـع للمستشـرقين في ادعائهم تَوْفِيدَ العلوم الإسلامية، وأنها ليست ذاتيـة بـل منقولـة مـن الثقافات الأخرىٰ.

---

(١) تكون العقل العربي محمد عابد الجابري (ص ١٤١).

(٢) ينظر: فجر الإسلام أحمد أمين (ص١٧٣).

(٣) ينظر: العقل الأخلاقي العربي الجابري (٥٣٦).

وإذا اتَّضحت الخلفية المشكلة للفكرة بقي أن نعرف نتيجة الفكرة، وهل استطاعت أن تضيف تجديدا عبر آلياتها وتقنياتها الآنفة الذكر؟

يمكن القول بأن الحداثيين بمختلف مشاريعهم الفكرية المقترحة من أجل فهم النص الديني لم يستطيعوا وَضعَ رؤىٰ وتصورات منهجية لفهم النصوص الدينية، ومشاريعُهم للفهم لم تساندها أمثلة تطبيقية تبْعثُ علىٰ القول بأنَّها ناجحة.

فالقراءة الحداثية للنص تتبنىٰ عدة مناهج مختلفة ومتناقضة، فتجد الحداثي يتبنىٰ الماركسية والبنيوية ونظرية التلقي في آن واحد، بالرغم من أن بعضها قام علىٰ أنقاض بعض مما أدىٰ بهم إلىٰ الغموض والتضارب المنهجي، حيث كان التعقيد آلية تعويضية عن الارتباك الفكري والتضارب الذي يتسم به هذا الخطاب، فهم في أنسنتهم للتراث الديني والنزول به عن البعد الرباني، جعلوا من آلياتهم البديلة عن المعايير التأويلية عند الأقدمين آليات عبثية لا تفرض مَعْنًىٰ محددا للنص، وبالرغم من فشو النَّفَس الاستدراكي عند هذه المدرسة؛ إلا أنه مع كل فحص موضوعي لمدىٰ الأهلية لنقد النصوص من طرف الحداثيين يتبين عدم استيعابهم للعلوم والمصطلحات التي يحاولون نقاشها.

ويشهد لهذا ما وقع لسامر إسلام بولي في اعتراضه علىٰ مصطلح سبب النزول عند المفسرين ليعترض عليه بما يفهمه من

المصطلح عند مناطقة الأصوليين[١]، ويغفل عن كون المصطلحات تختلف بحسب الحقول المعرفية، فهذا الاستدراك الذي يكشف مستوىٰ التعالي المعرفي عند صاحبه ليس حادثة عين، بل هو سمة غالبة يعاني منها جميع رواد المدرسة.

ولا جرم أن التأمل في نتيجة هذه القراءات يجعلنا ندرك حجم الفوضىٰ التي أنتجتها في مناهج التحليل، فاستحال القرآن إلىٰ مدونة تُمَارِسُ عليها النظرة الحداثية مُخْتَلَفَ أَشْكَالِ الاستنطاق مسترشدة بفلسفة انعدام المعرفة اليقينية أو النسبية، ليتم تجريد النص من أي معيار في التفسير، ويتم العبث به دلاليا، فالنص الذي يحتمل معانٍ لا متناهية لا يمكن أن يكون مقدسا، وكيف يكون مقدسا وهو يدل علىٰ الشيء ونقيضه في آن واحد.

وينبغي التنبه إلىٰ أن المشروع الإنساني يستند إلىٰ اللغة بوصفها وسيلة للتواصل بين البشر؛ ليتمكنوا من الاحتفاظ بثمرة تفاعلهم مع الطبيعة، وحتىٰ لا تبدأ كل تجربة من الصفر، فإنه لا بد من اعتبار المدلول اللغوي للكلمة، وإذا لم يعتبر المدلول اللغوي في التعامل مع النصوص لم تكن ثمة فائدة من العلوم العقلية التي عُبِّرَ عن نتائجها بلغة غير متناهية المعاني عند هؤلاء، فما بالك بالعلوم الشرعية!

---

(١) ظاهرة النص القرآني تاريخ ومعاصرة سامر إسلامبولي (ص ١٣٦).

وتكون العلاقة بين الذات والموضوع، والفكر والواقع علاقة تناقض، فلا يفترض أن تكون التجارِب مسلمة في نتائجها مردودة حين التعبير عنها لأن اللغة غير متناهية.

❁ **ختامًا**: نستطيع القول: إن العلمانية والاستشراق كان لهما الدور البارز في توجيه القراءة الحداثية، ولم تُثمر شيئًا سوىٰ التضارب في الأفكار والتناقض في الرؤىٰ والتعقيد في الأقوال، ولم تستطع إنتاج رؤية منهجية لفهم النصوص، فالحمد لله الذي أنزل الفرقان ليكون للعالمين نذيرًا[١].

---

(١) إعداد: الحضرمي أحمد الطلبه.



التــأويل

وجدلية الدلالة عند الحداثيين

يـزعم الحـداثيون أن التأويـل كـان هـو المصـطلح السـائد والمستخدم دون حساسية من دلالته عند المسلمين؛ ولكنه تراجع تدريجيًّا لصالح مصطلح التفسير، وفقد التأويل دلالته المحايدة وغُلِّفَ بغلاف سلبي من الدلالات من أجل إبعاده عن عمليات التطور والنمو الاجتماعيين، وما يصاحب ذلك من صراع فكري وسياسي، كما أرجعوا نشأة تأويل النصوص إلىٰ الفرق السياسية الدينية، ومن ثم تم تحويل التأويل إلىٰ مصطلح مكروه لصالح مصطلح التفسير، وهذا الاختلاق للتشاجر بين المصطلحين وإعطائهما صبغة كيدية لا تلتزم بأدنىٰ مستويات الهيبة للنصوص؛ أوقع القائلين به في أزمة معرفية هي جدلية التأويل والدلالة، وهو ما جعل الحاجة ماسة لمعرفة مفهوم التأويل عندهم، وكيف تشكل معنىٰ النص، وذلك ما سوف نحاول إبرازه في هذا المقال:

التأويل عند الحداثيين: لا تعجب أيها القارئ الكريم حين لا تجد تعريفًا جامعًا مانعًا لمعنىٰ التأويل عند هذه المدرسة، فقد انطلقت المدرسة الحداثية من وجود حاجة ماسة للتأويل،

وخصوصًا للنصوص الدينية والتراث الإسلامي، واقترحوا لذلك مجموعة من الأدوات والتقنيات لممارسة العملية التأويلية، وكان دور هذه التقنيات -المستوردة بطبيعة الحال- كشف ما يعتقد الحداثيون أنه توظيف إيديولوجي للنص، كما أكّدوا علىٰ التفريق بين النص وفهمه، وبين اللغة وقراءتها، فالنص -كما يرىٰ علي حرب- لا يتوقف علىٰ كونه محلًّا لتوليد المعاني واستنباط الدلالات، ولا مجال لأن يقبض أحد علىٰ حقيقته، ومآل ذلك أن الأصول والمراجع لا يستنفذها تفسير واحد، ويصعب إفراغها في نسق منطقي صارم أو ضبط معانيها وحصر دلالتها[1].

ويكمن إعجاز القرآن بالنسبة للفكر الحداثي في تعدد معانيه واحتماله بحيث يسع لأكثر من تفسير، "وكونه ينفتح علىٰ كل معنىٰ حيث يمكن أن تتراءىٰ فيه كل الذوات، وأن تقرأ فيه مختلف العقائد والشرائع"[2].

وهذي النظرة الْمُجَرِّدَةُ للنص من أي دلالة ذاتية يحملها يمكنه من خلالها توجيه المتلقي، أو فرض قِيَمٍ عليه لم يكن لها أن تكون مستساغة وفق الآليات الشرعية المتواضع عليها عند أهل الاختصاص، مما جعل الحداثيين يستعيرون الأدوات الأجنبية

---

(١) ينظر: التأويل والحقيقة، علي حرب (ص ٩١).
(٢) نقد النص، علي حرب (ص ٨٧).

علىٰ الثقافة الإسلامية، فقاموا بتطبيق المناهج الغربية والنظريات بهدف تفكيك النص وتفكيك قُدسِيَّته، فطبقوا عليه مناهج متعددة مدعين أن المنهج الواحد يضيق أفق النظر ويؤدي إلىٰ الجمود، فطبقوا علىٰ النص البنيوية والتفكيكية من أجل مساءلة ممكنات النص الدلالية(١).

محاولين دمج الوعي في التفسير للنص الديني، ويقصدون بالوعي تجريبية القراءة وتقديم الوجود علىٰ الماهية، واعتبار اجتماعية القراءة، وضرورة تجاوب النص مع تطلعات الإنسان مما يجعل القراءة ظاهرة اجتماعية وإيديولوجية تزحزح جمود الواقع والعقل الإسلاميين، ولدمج الوعي بمجرىٰ النص طريقان:

- **القراءة الأفقية**: والتي تُعْنَىٰ بالدلالة والتأويل في بنية النص الديني الكتاب والسنة.
- **القراءة العمودية**: وهي التي تتبع السند والتراكمات التاريخية والعلاقات العامة السابقة علىٰ النص والتي أسهمت في وجود النص(٢).

---

(١) ينظر: إسلام المجددين محمد حمزة (ص ٦٣).
(٢) ينظر: قراءة في القراءة، مجلة الفكر المعاصر رشيد بنحدو: بيروت، عدد ٤٨-٤٩ (ص١٩).



ولتحقيق هذه العملية يسعىٰ الاتجاه الحداثي إلىٰ أن يؤسس لمبدأ مساءلة العلوم المعيارية المتعلقة بفهم النص مثل علوم القرآن والأصول؛ ليؤكد بذلك تاريخيتها وتاريخية ما أنتجت من مواقف، كما أكدوا علىٰ سعيهم لتعرية المصادر المتحكمة في الفكر الإسلامي؛ لأن النص الديني يمثل عقبة في ذهن الكثير من المسلمين، وذلك نتيجة تأويل معين قد تبلور عبر التاريخ[1].

ومن هنا أقاموا نظرية البحث الدلالي القائمة علىٰ التعلية من شأن الفهم علىٰ حساب المعنىٰ وقطع النظر عن أي بُعد غيبي في التفسير، فالنظرية الفلسفية عند محمد أركون حوَّلت السؤال: كيف يجب أن يكون المعنىٰ حتىٰ أفهمه؟ إلىٰ سؤال جديد: كيف أفهم حتىٰ يكون المعنىٰ؟

وهو تحويل من بنية المعنىٰ إلىٰ بنية الفهم من المعنىٰ المعطىٰ من طرف الله أو من طرف العقل الأول في الفلسفة إلىٰ المعنىٰ المنبثق من الذات[2].

فالتأويل عندهم تَحْيِينٌ للمعنىٰ وجعله أسيرًا لذهنية القارئ والمتلقي، ليفهمه وفق معاييره الخاصة، ونفَوْا أن يكون وجود أي معنىٰ أصلي لأي كلمة تنتج عنه المعاني اللاحقة لها[3].

---

(١) ينظر: تحديث الفكر الإسلامي (ص٤٩).
(٢) ينظر: نقد العقل الإسلامي عند محمد أركون، تأليف مختار فجاري (ص١٤).
(٣) ينظر: الإسلام وأوروبا الغرب، محمد أركون (ص ٢٩).

فالمعاني تنتج عبر الأنظمة الفكرية والسياسية والاجتماعية، وليست منبثقة عن النص نفسه، ولو كان مقدسا[١].

ولتأكيد هذا التصور عن الوحي طبقوا على النص نظرية الحفر الأوركولوجي لمعرفة حجم المسافة التي بين النص والتفسير، كما استخدموا التحليل التفكيكي لإثبات تاريخية النص التأسيسي الأول، يقول محمد أركون: "إن التفكيك يمثل المرحلة الأولى من أجل إعادة النقد لجميع المسلَّمات المعرفية العميقة التي يتحصَّن بها العقل الإسلامي"[٢].

وكان من نتائج هذه الفكرة حول النص وطريق معالجته تعويم الدلالة، وهو مفهوم يقوم بناء على بعض ملامح الاختلاف داخل النص، فالدال يفيد مدلولًا واحدًا، أو أكثر، وهذا الهامش إذا نظرنا إليه فهو يتطلب قرينة قوية تحول دون الحقيقة الأولى، أو المدلول الأوَّل، وهل تم ذلك بالاصطلاح أو بالطبيعة أو التوقيف؟

مسألة خلافية بين جميع الفلسفات والأديان.

والمقصود من هذا أن مسائل الخبرة والحياة وأنماط الكلام لها دخل في إنشاء مدلول الكلام.

---

(١) المرجع السابق (ص ٢٤).
(٢) معارك من أجل الأنسنة (ص ٣٨).

وممن شهر هذا السلاح في وجه النصوص وجعله أداة معرفية للتعامل معها؛ الجابري، فهو الذي طبق نظرية انفصال الدال عن المدلول، وادعىٰ أن العلاقة بين اللفظ والمعنىٰ ليست علاقة ضرورية، وإنما هي علاقة تحكمية؛ وعليه فإن المعنىٰ ليس مقيّدًا باللفظ؛ لأن المعنىٰ يُسْتَقَىٰ من طبيعة التفكير وليس من اللغة(١).

كما أضاف مُعْطًىٰ آخر لتفسير النص وهو المقاصد، والجابري يقدم المقاصد كبديل تأويلي عن الألفاظ ليتحرر بها التأويل من سلطة النص المعتمدة علىٰ سلطة اللغة(٢).

ويعتبر الجابري اتباع القواعد التأويلية المراعية للنص في إطار السياق والمعنىٰ أنها مجرد عملية خنق للعقل، فيقول: "لقد أدىٰ الانسياق مع متاهات إشكالية اللفظ والمعنىٰ والخضوع لمنطقها إلىٰ خنق العقل وتحجيم دوره"(٣).

ويحاول الجابري توظيف عبارة القرآن حمَّال أوجه؛ لتبرير نظريته في تعدد الدلالات القرآنية، والتي لا تمانع من التناقض في مدلولات النصوص(٤).

---

(١) ينظر: بنية العقل العربي، فقد عقد في الكتاب فصلًا بعنوان "اللفظ والمعنىٰ: منطق اللغة ومشكل الدلالة".
(٢) المرجع السابق (ص ٥٣٨).
(٣) المرجع السابق (ص ١٠٦).
(٤) مقال للجابري بعنوان: أسباب النزول بين السماء العليا وسماء الدنيا.

ومع أن كل ما سبق هو عرض للرؤية الحداثية تجاه النص من خلال ما قرره رواد المدرسة وعَرَّابُوهَا في العالم العربي؛ إلا أنه لن يفوت على القارئ أنه أثناء عرض الفكرة التأويلية عند هذه المدرسة لم يُسمع أي حديث عن أهلية القارئ للنص؛ تمكنه من فهم النص على أي ضوء يريده، وتلك هي عُقدة الحداثيين الحقيقية، وهي عدم وجود أهلية علمية تخوِّلهم للقراءة التأويلية، فجعلوا النص مفتوحًا ليتعامل معه كل أحد انطلاقًا من ثقافته، كما سعوا من خلال تفكيرهم التأويلي إلى زعزعة قداسة النص، وإزاحته لأنه يشكل عقبة أمام المشروع.

والأصل أن الباحث الموضوعي يجب أن يعرف أن عملية التأويل في الإسلام لها خصوصيتها العلمية والموضوعية؛ ويعني هذا الكلام أن يكون المجتهد مُلمًّا وعارفًا من الجهة التي ينظر فيها؛ لأن المقصود هو العلم بالموضوع على ما هو عليه، كي يتحقق تناسق المعنى مع سياق النص؛ والقراءة الحداثية في تعويمها للمعنى تقول بلسان الحال والمقال: إن النص الديني ليس نصًّا مقدسًا، بل هو مؤلَّف، وليست له أي سلطة على قارئه، بدليل أن القارئ هو الذي يحدد معناه ويفهمه وفق ثقافته التي يمكن أن يكون المعنى اللغوي للنص المتبادر إلى الذهن يرفضها، بل يطلب تغييرها، وقد اعتمد الحداثيون على المقدمات الترهيبية والتهويلية في تقديم نظريتهم التأويلية للنص، بالإضافة

إلىٰ اللغة الدرامية وقلب القواعد الإعرابية بداهة، وافتراض أن النص القرآني أو النبوي نص ميت ليس له أي معنىٰ، وإنما يمثِّل قالبًا يمكن أن يستخدمه من يريده لأي غرض، وهو ما عبَّروا عنه بالتوظيف، وهنا يقع القارئ في تناقض مع القرآن نفسه، فلا يمكن أن تكون المعاني الشرعية التي عُلِّقَ عليها الثواب والعقاب معانٍ عائمة لا يمكن تحديدها أو تحديد المراد منها، بل هي قابلة لأكثر من قراءة، مما يجعل ما يراه الشخص كفرًا يراه غيرُه إسلامًا، ويستدل عليه بنفس النص، وليت شعري ما معنىٰ الحساب؟! وما معنىٰ أن الأنبياء يحكمون بين الناس فيما كانوا فيه يختلفون؟!!

إن محاكمة المشروع الحداثي التأويلي إلىٰ أي معيار من المعايير المعتبرة عند البشرية في تقييم الأفكار بما فيها النقل والعقل؛ يجعل الشخص يحكم علىٰ المشروع دون كبير عناء أنه مشروع هزلي لا يعطي قيمة للحقيقة ولا للمعرفة، كما أنه لا يسعىٰ إلىٰ تطوير القارئ بقدر ما يحافظ له علىٰ مسلَّماته، ويجعل من الدين أداة طَيِّعَةً في يد المتلقي دورها تبرير ما يصدر عنه أو توفير غطاء وسند له[1].



(١) إعداد: الحضرمي أحمد الطلبه.



المحكماتُ الشرعيّة وأزمةُ الحداثيين

الحداثة في طورها العربي ترفض ثبات النموذج أو مثاليته، وتشتغل بالبحث عن كل جديد، معتقدة التضاد بين النص والواقع، وتحاول إيجاد تبرير لحالة الفوضىٰ التي تتسم بها التجربة الآنية، ومن هنا جاء التقابل بين اللحظة العابرة والقانون الثابت الذي يتحكم بها ويمنحها نظاما مستقرا أبديا، فاختلقت الحداثة صراعا مفتعلا بين الواقع والقيم، والثابت والمتحول.

ولم تقف به عند الحدود الأدبية والفلسفة النظرية، بل مارسته في جميع شؤون الحياة مما جعلها تستهدف الدين بالقراءة التأويلية التي تهدف إلىٰ نفي الأصول واعتبارها عوائق أمام التقدم الحضاري؛ فكانت المحكمات الشرعية وقواعد التفسير هي العقدة العلمية التي تحبط المشروع الحداثي، فاستهدفها الحداثيون بالتشكيك والنفي، وربطوها بالتخلف والسيطرة علىٰ العقل وتقييده، كما ربطوا بين تركها وبين التقدم الحضاري والتقني.

ودورنا في هذا المقال أن نقوم بفحص دعوىٰ نفي المحكمات ومن ثم نناقش الدعوىٰ في مستنداتها لنبين الخلل المنهجي الذي بنيت عليه.

نفـي المحكـمات عنـد الحـداثيين ومبنـاه: لقـد ظهـرت أزمـة الحـداثيين مـع الـنص في التعامـل مـع المحكمـات مـن خـلال منطلقاتهم التي لا تراعي مقصد الشريعة بقدر ما تراعي المناهج التي ترعرعت على أيدي المستشرقين، فأقبلوا على القرآن من موقع ترك العلوم والمعارف والأدوات التي تعد آلة معيارية لفهمه فهما صحيحا، وظنوا أن القواعد التفسيرية هي مجرد وضع وضعه علماء الإسلام مستعملين في ذلك قياس الشبه بين علماء الدين والكنيسة -مع الفوارق- واعتبروا النص الديني صنعا بشريا تشكل مع الواقع في جميع مراحله[١] فهو عندهم نص لغوي مرتبط ثقافيا واجتماعيا ببيئته التي نشأ فيها، وليس لقضاياه أي قيمة قدسية أو علمية[٢]؛ ولذلك فإن قراءته تتم عبر آليات (العقل التاريخي للإنسان) وليس طبقا لآليات العقل الغيبي الغارق في الخرافة والمنطق الأرسطي[٣]؛ وعليه فإنه كما يقول محمد أركون: "لا توجد أصول دائمة وأبدية وإنما هناك أصول متغيرة بتغير العصور، ومن ثم فتأسيس النهائي للحقيقة والعقل شيء مستحيل، لأن الحقيقة أصبحت نسبية، ولم تعد مطلقة وأبدية،

---

(١) ينظر: هموم الفكر والوطن لحسن حنفي (١/ ٢٣).
(٢) ينظر: نقد الخطاب الديني نصر أبو زيد (ص ١٣٦).
(٣) ينظر: نقد الخطاب الديني (ص ٢٣).

كما يتوهم الأصوليون من كل الأنواع والأجناس"[١].

ويرىٰ جمال البنا أن أهم ما ينبغي التوجه إليه وتغييره هو الثوابت لأنها وإن كانت تحافظ علىٰ استقرار المجتمع وتعصمه من الانزلاق؛ إلا أن عدم مناقشتها يجعلها تتجمد وتَتَوَثَّنُ، وتأخذ قداسة المعبود[٢]، وأول هذه الثوابت التي ينبغي أن يطالها معول الهدم والتشكيك -في نظر هؤلاء- هي العقائد، فمحمد أركون يرىٰ أن أكبر عائق للعقل العربي أمام الإبداع هو التسليم للعقائد وعدم اعتبارها مجرد قضايا تاريخية[٣].

ومُجمل العمل عند هؤلاء يُقدَّمُ باسم الاجتهاد، ولم يسلم الاجتهاد من لَيٍّ مفهومه، فهو يمارس بـ "العقل" بعيدا عن النقل الذي هو مبرر مشروعيته، مستخدمين في ذلك ما قدروا عليه من الالتواءات الفكرية، ومسارات التحليل المتعسف، الذي يجعل من النص الديني خلفية احتياطية وثانوية، فإذا تعارض مع العقل رُدَّ وإذا تعارض مع معطيات التاريخ قدم التاريخ عليه، وإذا تعارض مع الواقع ألغي النص.

---

(١) معارك من أجل الأنسنة محمد أركون (ص ٣٧).
(٢) الحرية في الإسلام جمال البنا (ص ١٢).
(٣) الفكر الإسلامي قراءة علمية أركون (ص ١٥).

ويتعاملون مع القرآن بعيدا عن جميع الآليات المختصة به ويدعون أنه ليس بحاجة إلىٰ شيء منها، بل يمكن التعامل معه بمعزل عنها، فهو لا يحتاج إلىٰ شيء إلا إلىٰ الفكر الحداثي لكي يُفْهَمَ في إطاره.

وعند عرض الرؤية الحداثية علىٰ الفحص المعرفي نجدها تتسم بالهشاشة، ولا تتفق مع مدلولات النصوص الشرعية فضلا عن كونها معارضة للدلائل العقلية، والشواهد التاريخية.

فالقارئ للمنتج الحداثي يدرك بوضوح أنه لا يمتلك الجدية البحثية في التعامل مع ظاهرة الوحي، ولم يعطها قدرها من النظر والتدقيق، فقد تعامل معها كظاهرة مغمورة في التاريخ الإسلامي، وكأن المسلمين لم يهتموا بها ولا بتفاصيلها وظروفها، وأن الأدوات المعرفية لفهمها لم تكن محل تمحيص وتدقيق من طرف نظار المسلمين، بل يكفي أن يتكلم المهتم بالعلوم القرآنية بالكلمة فتكون قاعدة عند المختصين، وتؤخذ علىٰ أنها مسلمة.

وللتدليل علىٰ أن هذا الكلام لا يستقيم، فلنأخذ مفهوم المحكمات ونعرضه علىٰ الميزان، فهل كان مفهوم المحكمات وضعا من العلماء أو اصطلاحا خاصا بهم؟ أم كان منهجا وجد مع القرآن؟

الذي يقرأ القرآن يجد لفظ المحكمات حاضرا في أوائل السور وفي ثناياها، ويُقَدَّمُ على أنه معيار في التفسير يُرَدُّ إليه المشكل ليتضح معناه، فاللفظ كمعيار من الناحية التاريخية سابق للتدوين وسابق للعلوم، فهو ميزة للقرآن وجمالية تجعله منفردا عن غيره قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [آل عمران:٧].

فالمحكمات من خلال النص بعيدا عن أي تفسير هي المرجع، وهي الأساس فلا تتغير ولا تتبدل، وغيرها متشابه يُعَدُّ اتباعه ضلالا، ونقصا في العقل وسعيا للفتنة، وهذه المحكمات لها ميزة وهي أنها معظم الكتاب وأغلبه، وعلى هذا حملها جميع المفسرين ولم يختلفوا في معناها المتبادر إلى الذهن عند قراءتها[(١)].

ونجد أن القرآن لم يقف عند لفظ المحكمات بل يزيد وصفا آخر وهو التفصيل، وهو وصف زائد على الإحكام، ليبين أن القرآن لا بد أن يكون مرجعا وأساسا فيما تكلم فيه

---

(١) ينظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٤/ ١٤٠)، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير (١/ ٣٢٠).

وأن هذا التفصيل ذاتي للقرآن وليس من عند البشر ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١﴾ [هود:١]. وهذا التفصيل المذكور بعد الإحكام يراد به تفصيل الحلال والحرام والوعد والوعيد[1].

ونجد آيات أخرىٰ تتحدث عن أوصاف القرآن وأن من أهمها البيان ﴿وَلَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ ءَايَٰتٖ مُّبَيِّنَٰتٖ﴾ [النور:٣٤]. والبيان إظهار المقصود بأبلغ لفظ[2] ﴿بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٩]. فكان هذا البيان الذي وصف به القرآن هو المعول عليه عند العلماء في معرفة الحق، ولمعرفة أن النظرة الحداثية لا تستقيم مع ذات الوحي بل هي بسيطة في مضمونها ساذجة في نتيجتها لك أن تنظر في مقصود القرآن من التشريع فإنه يتمحور حول حسم الخلاف، وتبيين الحق وهذا لا يتأتىٰ مع القراءة اللامتناهية للمعاني، والتي تجعل النص مفتوحا ومتغيرا ليس له ثابت ولا كلي يتحاكم إليه، والله ﷻ يقول: ﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ [النحل:٦٤].

---

(١) ينظر: تفسير القرآن العزيز لابن أبي زمنين (٢/ ٢٧٧).

(٢) لسان العرب لابن منظور (١٣/ ٦٧).

فالنص القرآني ليس مفتوحا بهذه الدرجة بل هو مُبَيِّنٌ للصواب من الخطأ كما تقرر الآية، وحاكم ومهيمن كما وصفته بعض الآيات الأخرىٰ، فالشريعة بهذا المعنىٰ موضوعة للإفهام **وهذا الإفهام يلزم منه أمور:**

أولها: عربية القرآن: فالقرآن نزل بلسان عربي فهو علىٰ معهود العرب في خطابهم وألفاظهم، فالقرآن في معانيه وأساليبه علىٰ هذا الترتيب، فكما لا يمكن فهم لسان العجم عن طريق لسان العرب لاختلاف الأساليب، فكذلك لا يمكن فهم لسان العرب عن طريق أساليب العجم لاختلاف الأوضاع والأساليب.

ثانيا: خصوصية اللغة العربية: فاللغة العربية لها خصوصيتها في حكاية الأخبار بحسب الخبر والْمُخْبِرِ والْمُخْبَرِ عنه، والْمُخْبَرِ به، ونفس الإخبار، في الحال والمساق، ونوع الأسلوب من الإيضاح، والإخفاء والإيجاز، والإطناب، وغير ذلك[1] فلا بد من مراعاة كل ذلك أثناء البحث في النصوص ومحاولة الاستنباط منها.

ثالثا: القول بعدم ثبات معانيه وأحكامه يبطل حجيته؛ لأن القرآن رتب الثواب والعقاب علىٰ الأعمال والتصديق بالأخبار، فلا يمكن أن يكون التارك للعمل الْمُكَذِّبُ للخبر معاقبا في زمن النبي ﷺ مثابا علىٰ نقيض ذلك في هذا الزمن.

---

(١) ينظر: الموافقات للشاطبي (٢/ ٦١-٦٢).

والقرآن جرىٰ علىٰ أسلوب العرب في خطابهم، فأحيانا يأتي باللفظ الذي لا يحتمل سواه علىٰ مر العصور، وهو ما يسميه العلماء بالنص في بعض إطلاقاته مثل قوله: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾ [البقرة:١٦٣]. ومثله الأخبار التي لا تحتمل إلا معنيين إما الصدق أو الكذب، والكذب مستحيل في حالة القرآن، فالقرآن إذ أخبر بإرسال رسل علىٰ مر العصور يبلغون رسالات الله للناس، وأنهم متواترون علىٰ معنىٰ واحد للدين، وهو إفراد الله بالعبادة: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء:٢٥]. فلا يمكن أن يفسر هذا المعنىٰ بغير ما يظهر منه، ولذلك لم يختلف المسلمون علىٰ هذا المعنىٰ، ولو أخذنا التفاسير من عهد الصحابة إلىٰ يومنا هذا وجدناها متواترة علىٰ هذا المعنىٰ، ومعتبرة أي تفسير يخالفه ضلالا وحَيْدَةً عن المعنىٰ القرآني وابتعادا عن الأسلوب العربي في تقرير الألفاظ.

فمخالفة هذه الأساليب، أو عدم إتقانها يُفْقِدُ الباحث الأهلية العلمية للكلام في أيِّ فَنٍّ من فنون الشريعة، وهذا ما وقع للحداثيين حين جهلوا أساليب اللغة وَطُرُقَهَا في الخطاب، ولم يُكَلِّفُوا أنفسهم عناء البحث، بل تجاوزوا الموضوع، فتناولوا الشريعة بآليات أجنبية عليها؛ ليتفقوا مع الرؤية الاستشراقية في

النتائج والمنطلقات، ومن العجيب أن يربط بعضهم التقدم بترك الآليات التفسيرية للدين النابعة من ذاته لِيَسْتَقْدِمَ آليات أخرىٰ دون أن يكلف نفسه أي مسؤولية أخلاقية أو علمية يفحص علىٰ أساسها دعواه، فها هي ذي الآليات التقنية تتطور علىٰ يد الياباني البوذي المشرك، كما تتطور علىٰ يد الروسي الملحد، وبنفس الدرجة تتطور علىٰ يد المسلم الباكستاني والإندونيسي، مما يدل علىٰ أن هذه التقنيات الحضارية لا تحمل ولاء لأحد، وليست طوعا لأي فكرة، وإنما هي تابعة للسنن الكونية التي لا تحابي أحدا، ولكنَّ النَّفَسَ الاستلابي الذي يسود علىٰ الطرح الحداثي كان محفزا لهم علىٰ هذه التفسيرات التي لم يقيموا عليها أي دليل علمي، بل في أحسن الأحوال يكتفون بالربط الصوري بين حالتي التدين المنحرف في الغرب وحالة الإسلام ليعلنوا البدأ من الصفر في التعامل مع القضايا الكونية وينشروا الحيرة المنهجية التي تنتابهم أثناء تقرير قواعد منهجهم.

فلذا كانت أزمتهم تكمن في قضية الاجتهاد خارج مقاصد النصوص والتعامل معها بآليات أجنبية عليها، هذا مع ما يعتري هذه الآليات من التناقض في نفسها، وكونها لم تكن محل تمحيص ولا تدقيق من واضعيها، فمن هنا جاءت الحيرة والتناقض المنهجي والتضارب الفكري؛ نتيجة لتطبيق آليات فكرية دون استيعابٍ لمسارها التاريخي فينتفي المطلق ليحل محله النسبي

والإلهي ليحل محله الإنساني، وسط عملية من الاستهتار بالعقل البشري وإرجاعه للوراء ليعبث بالحقائق المطلقة، ويلغي الشرع، ويبدأ مسارا حائرا لا ينتهي فيه إلا إلى الشك، فالشك وحده هو الحقيقة الثابتة عند الاتجاه الحداثي، وهذه الغاية تكفي العاقل في إدراك بطلان القول في نفسه، فالحكم الذي يتناقض في نفسه لا يمكن أن يعتبر مصيبا مطلقا[١].

---

(١) إعداد: الحضرمي أحمد الطلبه.



تقنيـــات الحـــداثيين

الغموض أنموذجًا

إن المتابع للمنتَج الفكري الحداثي يستطيع بسهولةٍ ملاحظةَ المحاولات الدؤوبة التي يبذلها الحداثيون العرب؛ للولوج عبر الكتابات الفكرية بحمولة مصطلحية وعائلة مفاهيمية خاصة لكل واحد منهم، والعمل علىٰ اصطحاب تلك المفاهيم وضخِّها في مصنفاتهم بشكلٍ استعراضي خاص، وبشكل ربما يخالف قواعد اللغة والمعاني الأساسية المعروفة من تلك الكلمات؛ لخَلْق نوع من الإبهار الهوليودي، أو إن شئتَ فقل: «الإرهاب الفكري» حتىٰ ينقدح في ذهن المتلقِّي ضخامة تلك المعاني الغامضة، وبثٍّ روحٍ من الهزيمة الثقافية أمام تلك العبارات غير المطروقة في اللسانَ العربي.

والمقصود بـ«الحداثيين» هنا: مجموعة الكُتّاب المعاصرين الذين يشتركون في تبني عدة أفكار مثل: العقلانية، والعلمانية، ونسبية الحقيقة، ونزع القداسة، والتاريخية، والدعوة للقطيعة مع

الماضي، وتجاوز ما قرَّرَه السابقون، وفتح باب التأويل، وإعادة فهم النصوص فهمًا جديدًا، واستحداث مناهج جديدة للتعامل مع التراث ونصوص القرآن والسُّنة، مأخوذة في الغالب من تراث الغرب النقدي(١).

وأحب أن أشير قبل الخوض في الحديث عن «الغموض» كتقنية للحداثيين، أنه قد يُستَحسَن استعماله في استخدامات محدودة بصفة مخصوصة، أشار إليها الإمام الماوردي (ت٤٥٠هـ) في كتابه «أدب الدنيا والدين»، إذ يقول:

«وربما استعمل الرمز من الكلام فيما يراد تفخيمه من المعاني، وتعظيمه من الألفاظ؛ ليكون أحلىٰ في القلوب موقعًا، وأجل في النفوس موضعًا، فيصير بالرمز سائرًا وفي الصحف مخلَّدًا. كالذي حكي عن فيثاغورس في وصاياه المرموزة أنه قال: احفَظ ميزانك من الندىٰ، وأوزانك من الصَّدىٰ! يريد بحفظ الميزان من الندىٰ حفظ اللسان من الخنا، وحفظ الأوزان من الصدىٰ حفظ العقل من الهوىٰ.

(١) انظر: أحمد قوشتي، «موقف الاتجاه الحداثي من الإمام الشافعي؛ عرض ونقد»، الطبعة الأولىٰ (١٤٣٧هـ-٢٠١٦م)، مركز التأصيل للدراسات، جدة، (ص٧) بتصرف يسير، وقد أشار إلىٰ عدة مراجع مهمة، وإنما ذكرتُ عبارته لأنها جمعت ما تفرّق.

فصار بهذا الرمز مستحسنًا ومدونًا ولو قاله باللفظ الصريح والمعنىٰ الصحيح، لما سار عنه، ولا استُحسن منه»(١).

ومع ما ذَكر الإمام من استحسان هذا المعنىٰ إلّا أنه خَصّ ذلك بما يُستملَح من العلوم كالوصايا ونحوه، أما العلوم المنتشرة التي يُراد بها بيان الحق، فإن الغموض والترميز فيها يكون منفرًا عنها، ويوضح ذلك بقوله:

«فأمّا العلوم المنتشرة التي تتطلع النفوس إليها، فقد استغنت بقوة الباعث عليها وشدة الداعي إليها عن الاستدعاء إليها برمز مستَحْل ولفظ مستغرب، بل ذلك منفر عنها؛ لما في التشاغل باستخراج رموزها من الإبطاء عن إدراكها»(٢).

نعم؛ فهذا الإبطاء الذي يحدث بتغميض الكلام وترميزه فضلا عن كونه مُنَفّر فإنه أيضًا خلاف مقصود الشارع الذي علّم البيان ويسّر القرآن، وما أرسل من رسول إلا بلسان قومه ليُبيّن لهم(٣).

---

(١) الماوردي، علىٰ بن محمد، «أدب الدنيا والدين»، تحقيق: محمد كريم راجح، الطبعة الرابعة، (١٤٠٥-١٩٨٥)، (دار اقرأ، بيروت)، (ص٦٠).

(٢) الماوردي، «أدب الدنيا والدين»،(ص٦٢).

(٣) يذكر الإمام أن غالب الترميز يختص غالبا بأحد شيئين:

«إما بمذهب شنيع يخفيه معتقده ويجعل الرمز سببًا لتطلع النفوس إليه واحتمال التأويل فيه سببا لدفع التهمة عنه، وإما لما يدعي أربابه أنه علم معوز، وأن إدراكه بديع معجز، كالصنعة التي وضعها أربابها اسما لعلم الكيمياء فرمزوا بأوصافه». ينظر: (ص٦٠-٦١).

والحقيقـة أن علمـاء الإسـلام قـاموا برصـد تلـك الأسـاليب والتقنيات التي ينتحلها الحداثيون اليوم منذ وقت مبكر جدًّا.

ومـن تلـك النصـوص: مـا نُقِـل عـن «سـلف الحـداثيين» بشـر المريسي (ت٢١٨) حين قال لأتباعه: «إذا احتجـوا عليكم بـالقرآن فغـالطوهم بالتأويـل، وإذا احتجـوا بالأحاديـث فادفعوهـا بالتكذيب»[(١)].

وكذلك قـام الإمـام ابـن تيميـة (ت٧٢٨) بشـرح مفـردات تلـك التقنية بقوله: «هؤلاء عمدوا إلىٰ ألفـاظ مجملـة مشـتبهة تحتمـل في لغات الأمم معاني متعـددة، وصـاروا يُدخلون فيهـا مـن المعـاني مـا ليس هو المفهوم منها في لغـات الأمـم، ثـم ركّبوهـا وألّفوهـا تأليفًـا طويلًا بنوا بعضه علىٰ بعض وعظّموا قولهم وهوَّلوه في نفـوس مَـن لـم يفهمـه، ولا ريـب أن فيـه دقـة وغموضًـا؛ لمـا فيـه مـن الألفـاظ المشتركة والمعاني المشتبهة»[(٢)].

وكـذلك مـن الراصـدين الكبـار لهـذه التقنيـات: العلامـة عبـد الرحمن المعلمي اليماني (ت١٣٨٦)، حين رصد ثلاثة أنظمة:

---

(١) انظـر: ابـن تيميـة، «درء تعـارض العقـل والنقـل»، (٥/ ٢١٨)، وابـن القـيم، «الصواعق المرسلة»، (٣/ ١٠٣٨).

(٢) ابن تيمية، درء تعارض العقل والنقل، (١/ ١٧١).



«نظـام المتقـدمين: التحريـف، ونظـام المتوسـطين: زعـم أن النصوص النقلية لا تفيد اليقين والمطلوب في أصول الدِّين اليقين؛ فعزلـوا كتـاب الله وسُنّة رسـوله عـن أصـول الـدِّين، ونظـام بعـض العصريين: التشذيب»[١].

وهـذا الـنص مـع إيجـازه كاشـف لحالـة التطـور والاسـتمرارية التي تكتنف تلك التقنيات من عصر لآخر.

وبالعودة إلىٰ «الغموض» يَرِد علىٰ الذهن سؤال مهم: لماذا؟!

لماذا يلجأ هؤلاء إلىٰ تلك التقنية في كتاباتهم الفكرية؟

يجيـب عـن هـذا الإمـام المـاوردي (ت٤٥٠)، بأنـه نـوع مـن تحصـيل التعظـيم وجلـب التفخـيم، فيقـول: «وعلـة ذلـك أن المحجوب عن الأفهام كالمحجوب عن الأبصار فيما يحصل لـه في النفوس من التعظيم، وفي القلوب من التفخيم، وما ظهر منها ولم يحتجب هان واسترذل»[٢].

وكعادتـه؛ يعمّـق شـيخ الإسـلام الحفـر ليصـل إلـىٰ محـور الاستخدام، فيذكر أنه الإلجاء إلىٰ تـرك الاعـتراض خشـية الوقـوع في معرة الجهل، فيقول:

---

(١) المعلمـي، «الأنـوار الكاشـفة لمـا في كتـاب أضـواء علىٰ السـنة مـن الزلـل والتضليل والمجازفة»، تحقيق: علي بن محمد العمران، د.ط، (دار عـالم الفوائد، مكة المكرمة، ١٤٣٤هـ)، (ص٢٣).

(٢) الماوردي، «أدب الدنيا والدين»، (ص٦١)



«فإذا دخل معهم الطالب وخاطبوه بما تنفر عنه فطرته فأخذ يعترض عليهم قالوا له: أنتَ لا تفهم هذا! وهذا لا يصلح لك، فيبقىٰ ما في النفوس من الأنفة والحمية يحملها علىٰ أن تُسَلِّم تلك الأمور قبل تحقيقها عنده، وعلىٰ ترك الاعتراض عليها خشية أن ينسبوه إلىٰ نقص العلم والعقل»[(١)].

وللأسف الشديد فإن الواقع المعاصر يؤكد هذا التفسير بكل وضوح، فكم من الشباب المتطلع للتمدُّن والظهور بمظهر المتحضِّر ألجأه خوفه أن يوصم بالجهل والرجعية ونقص العلم والجهل إلىٰ تجشُّم أمور ومسايرة أوضاع، بل وترديد أفكار لا تمت للإسلام بصلة، فربما ادعىٰ بعض الشباب أنه ملحد؛ لأن العلم التجريبي والثقافة المدنية لا تقرُّ العقائد الغيبية والماورائيات، وربما تجاسر بعضهم وتنقَّص من بعض الصحابة الكرام رضوان الله عليهم بدعوىٰ رفض الاستبداد والظلم، إلىٰ آخر تلك القضايا التي تبين السلطة الفكرية التي تبسطها تلك التقنية علىٰ عقول بعض البسطاء وقليلي الاطلاع وضعيفي الشخصية.

(١) ابن تيمية، «درء تعارض العقل والنقل»، (١/ ١٧١).

وقبل أن نغادر تلك النقطة أحب أن أذكر سببًا مهمًا ومؤلمًا في الوقت نفسه ذكره العلامة المعلمي اليماني، إذ بيَّن أن سبب استخدام هذه التقنية هو «الاستسلام بنظام»!.

يقول: «إن أضر النَّاس علىٰ الإسلام والمسلمين هم المحامون الاستسلاميون! يطعن الأعداء في عقيدة من عقائد الإسلام أو حُكم من أحكامه ونحو ذلك فلا يكون عند أولئك المحامين من الإيمان واليقين والعلم الراسخ بالدِّين والاستحقاق لعون الله وتأييده ما يثبتهم علىٰ الحق ويهديهم إلىٰ دفع الشبهة، فيلجأون إلىٰ الاستسلام بنظام»[1].

وإذا ما حدَّقنا النظر في التراث الغربي، نجد برتراند راسل (ت١٩٧٠م) يذكر ذلك الغموض الغالب علىٰ كتابات هيجل (ت١٨٣١م) وأن كتاباته من أصعب المؤلفات في النتاج الفلسفي بأكمله، ويصف أسلوبه في الكتابة بالثقيل والرديء بسبب ذلك «الغموض الذي يغلب عليها»[2].

---

(١) المعلمي، «الأنوار الكاشفة»، (ص٢٣).

(٢) رسل، «حكمة الغرب»، ترجمة: فؤاد زكريا، د.ط، إصدار (٦٢، ٧٢)، ضمن إصدارات سلسلة عالم المعرفة، (المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٨٣م)، (٢/ ١٣٠).

وما يُساعد على تَفَهُّم ذلك الغموض ما يؤكده راسل عن تأثُّر هيجل بـ «اسبينوزا» في فكرة المطلق! حيث يقول: «وهكذا ينادي المبدأ الجدلي بأن المطلق الذي يصل فيه المسار إلىٰ نهايته، هو الحقيقة الوحيدة، وفي هذه الفكرة كان هيجل متأثرًا باسبينوزا»(١).

ويزيد راسل إيضاح الأمر في علاقة الغموض الذي يربط بين هيجل واسبينوزا، فيقول: «لو بحثنا عن تعريف للفكرة المطلقة عند هيجل لوجدناه من الغموض بحيث يغدو أمرًا لا جدوىٰ منه...، وفي نواح أخرىٰ يذكرنا هذا المفهوم بإله اسبينوزا؛ الذي كان هو والكون شيئًا واحدًا»(٢).

أما ذلك التخبط بين اللفظ وعلاقته بما وضع له، فهو موجود أيضًا في الكتابات الغربية، كما يقول راسل عن فلسفة مارتن هيدجر (ت ١٩٧٦م): «والواقع أن فلسفة هيدجر التي استخدمت مصطلحات في غاية الغرابة تتسم بالغموض الشديد، بل إن المرء يضطر إلىٰ القول: إن اللغة هنا تسير بلا ضابط»!(٣).

وفي بيان قِدَم العلاقة المتوهمة بين الغموض وادعاء العمق، يشير راسل لأعمال الفلاسفة القدماء، وأن أفلاطون (ت ٣٤٨ ق.م) امتاز بكتابة ظلت استثناءً في تاريخ الفلسفة،

---

(١) رسل، «حكمة الغرب»، (٢/ ١٣٢).
(٢) رسل، «حكمة الغرب»، (٢/ ١٣٢).
(٣) رسل، «حكمة الغرب»، (٢/ ٢٢٠).

فيقول: «فكم من الكتابات الفلسفية ثقيلة جافة جوفاء؛ بل إننا نجد في حالات معينة ما يشبه التقليد الراسخ الذي يقضي بأن تكون الكتابات الفلسفية غامضة معقدة في أسلوبها حتىٰ تكون عميقة»![1].

ومن الشخصيات المؤثرة في الحداثيين العرب بقوة إيمانويل كانت (ت١٨٠٤م)، وهو من الشخصيات المتصفة بالغموض أيضًا، كما يقول برنتون: «ما اتصف به كانط من غموض وإطالة مملة، وهي صفات ألمانية»[2].

بهذا يظهر سبب تلك اللغة المتعالية والنخبوية المعقدة التي يستخدمها الحداثيون العرب؛ لإيهام العمق وإثارة نوع من النفوذ والسيطرة الفكرية علىٰ ذهن القارئ تطلّبًا لترك الاعتراض عليهم[3].

والحمد لله رب العالمين[4].

---

(١) رسل، «حكمة الغرب»، (١/ ٨٩).

(٢) برينتون، «تشكيل العقل الحديث»، ترجمة: شوقي جلال، د.ت، د.ط، (دار العين للنشر، القاهرة)، (ص ١٦٨).

(٣) ينظر أيضًا: السكران، إبراهيم بن عمر، «مآلات الخطاب المدني»، ط١، (مركز الفكر المعاصر، نشر دار الوعي، الرياض، ١٤٣٥هـ)، (ص٢٤٠، وما بعدها)، فقد كتب فصلا بعنوان «سلطة الغموض».

(٤) إعداد: محمد حشمت إبراهيم سعدة.



تقنيات الحداثيين

الثوب الرقيق

في مقال سابق تحدثنا عن تقنية مهمة من التقنيات التي يستخدمها الحداثيون في التعامل مع النصوص وكذلك مع الجماهير، من خلال «تقنية الغموض»، وأشرنا حينها أن المقصود بالحداثيين هنا هم: مجموعة الكُتّاب المعاصرين الذين يشتركون في تبني عدة أفكار مثل: العقلانية، والعلمانية، ونسبية الحقيقة، ونزع القداسة، والتاريخية، والدعوة للقطيعة مع الماضي، وتجاوز ما قرَّرَه السابقون، وفتح باب التأويل، وإعادة فهم النصوص فهمًا جديدًا، واستحداث مناهج جديدة للتعامل مع التراث ونصوص القرآن والسُّنة، مأخوذة في الغالب من تراث الغرب النقدي.

وذكرنا أن علماء الإسلام قاموا برصد تلك الأساليب والتقنيات منذ وقت مبكر جدًّا، مستشهدين بما نُقِل عن «سلف الحداثيين» بشر المريسي (ت٢١٨) حين قال لأتباعه: «إذا احتجوا عليكم بالقرآن فغالطوهم بالتأويل، وإذا احتجوا بالأحاديث فادفعوها بالتكذيب»(١).

---

(١) انظر: ابن تيمية، «درء تعارض العقل والنقل»، (٥/ ٢١٨)، وابن القيم، «الصواعق المرسلة»، (٣/ ١٠٣٨).

وما أعدنا هذه الفقرة من قبيل التكرار المحض أو التذكير بما سبق بقدر أهمية ما نذكره هنا لأنه من النصوص المفتاحية لأغلب التقنيات المستخدمة من قبل الحداثيين التي مهما تعدّدت صورُها وتغيّرت أسماؤها فهي تقع تحت هذه الأفعال الخادشة للعلم والصدق، أي: التحريف والتكذيب.

وتقنية الثوب الرقيق، أشار إليها العالم الشامي الكبير، الدكتور مصطفىٰ السباعي، رَحِمَهُ اللَّهُ (ت١٣٨٤) في كتابه الشهير «السُّنة ومكانتها في التشريع الإسلامي»، حين نقل حوارًا كان بين الأستاذ أحمد أمين (ت١٩٥٤م)، والدكتور علي حسن عبد القادر[1]، و كان مما قاله الأستاذ أحمد أمين:

«إنَّ الأزهر لا يقبل الأراء العلميَّة الحرة، فخير طريقة لبثٍّ ما تراه مناسبًا من أقوال المستشرقين ألاَّ تنسبها إليهم بصراحة، ولكن ادفعها إلىٰ الأزهريِّين علىٰ أنها بحث منك، وألبسها ثوبًا رقيقًا لا يزعجهم مَسّها، كما فعلتُ أنا في فجر الإسلام وضُحَاهُ»[2].

---

(١) هو من قام بتعريب كتاب جولدتسيهر: المذاهب الإسلامية في تفسير القرآن، ط١ (١٣٦٣-١٩٤٤م).

(٢) ينظر: مصطفىٰ السباعي، السُّنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، (ص:٢٣٨).

وفكـرة الانتحـال مـن المستشـرقين وتصـدير أفكـارهم عـبر مُستورِد محليّ لها شواهد كثيرة ليس هذا محل بسطها، وإنما يكفي أن نعرف أن أغلب -إن لم يكن كُلّ- الأفكار المحورية التي أحدثَت منعطفات فكرية وجلبة اجتماعية في العصر الحديث كان أساسها منحولا من أفكار غربية وافدة؛ فمن كتاب "الإسلام وأصول الحكم" (١٩٢٥م) الذي قيل: إن الشيخ علي عبد الرزاق قد أخذ فكرته من توماس أرنولد في كتابه الشهير عن الخلافة (١٩٢٤م)، وما قيل في بعض العبارات الفجة التي أشير أنها كانت من وضع الدكتور طه حسين نفسه[1]، إضافة إلىٰ ما كتبه هو نفسه في الأدب الجاهلي، والذي ثارت حوله قضية انتحال أفكاره من المستشرق مرجليوث، وكذلك ما كتبه محمود أبو رية (ت ١٩٧٠م) بعنوان: «أضواء علىٰ السُّنة النبوية»[2] والذي أثار حينها

(١) ينظر: محمد عمارة، طه حسين من الانبهار بالغرب إلىٰ الانتصار للإسلام، وقد رجّح الدكتور عمارة أن طه حسين هو مَن أغرىٰ عبد الرزاق بذكر العبارات المخالفة التي أثارت الضجة وقتها، وأنه أضاف وعدل في عبارة الكتاب كما أشار هو نفسه لذلك. راجع: (ص ٤٧- ٥٥)، نشر مجلة الأزهر مع عدد ذي القعدة، ١٤٣٥هـ.

(٢) طبع عدة طبعات، وقفت علىٰ الطبعة السادسة، كتب في داخلها العنوان كالتالي: "أضواء علىٰ السنة المحمدية أو دفاع عن الحديث"! دار المعارف، بدون تاريخ نشر.

ضجة كبيرة حتىٰ قال أبو رية نفسه، وقد «بلغ ما صدر من نقد كتابنا إلىٰ اليوم خمسة عشر كتابًا؛ في مصر، والحجار والشام، هذا عدا المجلات..»(١)، وكان أبو رية قد استقاها بنفس بتقنية «الثوب الرقيق» من كتب المستشرقين؛ مثل: (تاريخ الشعوب الإسلامية)، لبروكلمان، و(وجهة الإسلام) لجماعة من المستشرقين، و(العقيدة والشريعة في الإسلام) لجولدتسيهر، وغيرهم(٢).

وقريب من تصريح أحمد أمين، ما شهد به نصر أبو زيد علىٰ استغلال العلمانيين للتراث الإسلامي في صورة غطاء وسِتارٍ لتمرير مشاريعهم، أو بحسب تعبيره «الاستخدام النفعي الذرائعي للتراث»(٣)، أو «التلوين الأيديولوجي النفعي»(٤) فيقول:

«اتجهت التيارات العلمانية إلىٰ مواجهة الحاضر ومحاولة حل إشكالياته بآليات ذات طابع عصري في أغلب الأحيان، لكنها أحسّت بضرورة طرح الآليات طرحًا يسوّغ قبولها من الجماهير»!

---

(١) ذكره في حاشية كتابه: شيخ المضيرة (ص ١٠).

(٢) ينظر: السباعي، مصطفىٰ السنة ومكانتها في التشريع، (ص ١٩، ٢٠).

(٣) نصر حامد أبو زيد، نقد الخطاب الديني، دار سينا للنشر، ط٢، (١٩٩٤م)، (ص٢٠٢).

(٤) نقد الخطاب الديني (ص١٥٤).

كيف ذلك؟

يجيب أبو زيد: أنهم استعملوا التراث هم والسلفيون، حيث تحول التراث عند السلفيين إلىٰ إطار مرجعي، «بينما تحول عند العلمانيين إلىٰ غطاء وسند»[(١)].

وليس القصد هنا بطبيعة الحال الاستفاضة في إثبات أمر أو نفيه، وإنما المقصود إيراد الدلائل علىٰ ذيوع ذلك الخُلُق عند المدارس المتأثرة بالغرب والتابعة لها.

ومن الجدير بالذكر أن علماء المسلمين قد ابتكروا تقنية كاشفة لهذا التلاعب منذ وقت مبكر جدًّا، تمتد من جيل الصحابة رضي الله عنهم، عبر ما أسموه بـ «**الاعتبار**»[(٢)] حيث استطاعوا الكشف والتفتيش عن أحوال الأسانيد والمتون والمقالات للتفرقة بين ما هو أصيل في الفكر الإسلامي وبين ما هو وافد عليه، فإذا جاءت بعض الآراء والأفكار المشتبهة فمحلها أن توضع تحت المجهر البحثي لتُسبَر وتُعتبر حتىٰ يتبين فيها الأصيل من الوافد الدخيل.

---

(١) نقد الخطاب الديني (ص١٥٤)، وهو هنا بطبيعة الحال لا يثني علىٰ أي من الفريقين، بل يردف بعدها بقوله: (وفشل كلا الاتجاهين في تأسيس معرفة علمية بالواقع أو بالتراث).

(٢) ينظر: منصور محمود الشرايدي، نظرية الاعتبار عند المحدثين، الدار الأثرية، عمان، ط١، (١٤٢٩-٢٠٠٨).

والاعتبار في أوجز عِبارة هو «التفتيش»[١] و«تَطَلُّب المتابعة»[٢]، فينظر العالم في القول وفيمن قاله وفي مخرجه وهل هناك متابع لهذا القول أم لا، وهل يجري على الأصول المحفوظة أو يخالفها، إلخ.

ومن الأمثلة التي يمكن الاستشهاد بها على تلك المهمة الأصيلة لدى علماء الإسلام ومفكريه نص بديع لابن تيمية (ت٧٢٨) في تتبع الأفكار والمفاهيم وتوفيدها لأصحابها، حيث يقول:

«وهذه التأويلات الموجودة اليوم بأيدي الناس- مثل أكثر التأويلات التي ذكرها أبو بكر بن فورك في كتاب "التأويلات" وذكرها أبو عبد الله محمد بن عمر الرازي في كتابه الذي سماه (تأسيس التقديس)، ويوجد كثير منها في كلام خلق كثير غير هؤلاء مثل: أبي علي الجبائي، وعبد الجبار بن أحمد الهمذاني، وأبي الحسين البصري، وأبي الوفاء بن عقيل، وأبي حامد الغزالي وغيرهم- هي بعينها تأويلات بشر المريسي التي ذكرها في

---

(١) هذه عبارة السخاوي، التوضيح الأبهر، (١/ ٧٢)، وينظر: نظرية الاعتبار، الشرايدي، (ص٥٩).

(٢) عبارة ابن جماعة، المنهل الروي، (١/ ٥٩)، وينظر: نظرية الاعتبار، الشرايدي، (ص٥٩).

كتابه...، ويدل على ذلك كتاب الرد الذي صنّفه عثمان بن سعيد الدارمي أحد الأئمة المشاهير في زمان البخاري؛ صنف كتابًا سماه: رد عثمان بن سعيد على الكاذب العنيد فيما افترى على الله في التّوحيد، حكى فيه هذه التأويلات بأعيانها عن بشر المريسي بكلام يقتضي أن المريسي أقْعَد بها وأعلم بالمنقول والمعقول من هؤلاء المتأخرين الذين اتصلت إليهم من جهته وجهة غيره ثم رد ذلك عثمان بن سعيد بكلام إذا طالعه العاقل الذكي= علم حقيقة ما كان عليه السلف وتبيَّن له ظهور الحجّة لطريقهم وضعف حجة من خالفهم»[١].

وهذا الاقتباس على طوله إلا أنه مثال خصب مليء بالمعطيات، من أهمها ذلك الثراء المعرفي الذي تمتع به سلفنا الصالح في تتبع الآراء وسبرها مهما تشعبت طرقها وكثر القائلون بها، من خلال تلك التقنية التي ابتكرها علماء المسلمين وتفردت بها أُمّة الإسلام.

ولهذه التقنية عدة تجليات أخرى غير تلك الصورة الكلاسيكية أيضًا، يجدها الناظر مع بعض الكُتّاب العرب، من ذلك، ما نجده عند حسن حنفي من الازدواجية، أو فن «رقصة

---

(١) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، (٥/ ٢٣).

المتناقضات» بحسب تعبير طرابيشي[(١)]، أو كما يحكي هو عن تسميته بـ «المفكر الزئبقي»، فلا يُعلم له اتجاه، فالإسلاميون يرونه ماركسيًا، والشيوعيون يرونه أصوليًا، والحكومة تتعامل معه على أنه شيوعي إخواني![(٢)]، وقريب من هذا ما ذكره نصر أبو زيد عن حسن حنفي أنه يقوم بـ«تلوين النصوص وطلائها»[(٣)].

ومن الأمثلة القريبة في انتحال الأفكار وإعادة تدويرها وطرحها من جديد في ثوب رقيق يغطي به المنتحِل صاحبه الأصلي، ما قام به الدكتور يوسف زيدان، في هجومه الأخير على شخصية الناصر صلاح الدين الأيوبي، ووصفه له بأقذع الألفاظ، وجمع العديد من الأغاليط التاريخية وصاغها في قالب إثاري، وعرضها في برنامج تلفزيوني كحقائق تاريخية يكشفها المحقق الجريء!

---

(١) ينظر: جورج طرابيشي، ازدواجية العقل: دراسة تحليلية نفسية لكتابات حسن حنفي، سلسلة المرض بالغرب؟، دار بترا، دمشق، ورابطة العقلانيين العرب، ط١ (٢٠٠٥)، (ص١٠).

(٢) ينظر: جاء التصريح بمقال للأستاذ ممدوح الشيخ في جريدة الشعب بتاريخ (١٦/ ١/ ٢٠٠٤)، عن (الجمعية الفلسفية المصرية)، وعزاه لجريدة أخبار الأدب، بتاريخ (٢٨/ ١٢/ ٢٠٠٣م)، وقد استفدته من التأويل الحداثي للتراث، (ص ٦٥) للسكران.

(٣) ينظر: إبراهيم السكران، التأويل الحداثي للتراث (ص٦٦).

والحقيقة أن هذه الطريقة ليست جديدة، فعادة الحداثيين العرب كما مر، أنهم ينتحلون كلام المخالفين والمستشرقين ثم يخرجونه كمنتج فكري خاص بالمفكر الذي لا يخاف في الحق لومة لائم، ويستعلمون هذه الإثارة الإعلامية في إلهاء المشاهد عن تتبع أصول تلك المقالات والانشغال بالرد علىٰ المستورد المحلي الذي يظهر كأنه صاحب المادة الخام والمنتج الرئيسي لهذه الأطروحات.

والسؤال الآن: إن لم يكن زيدان هو صاحب هذه الشحنة البغيضة من الكراهية لشخصية بحجم صلاح الدين، فمن هو منشئ هذا الطرح؟!

لا يكاد الناظر يجد هذه التوليفة المكتظة بالكذب والافتراء وتلفيق الأحداث للحط علىٰ رمز سُنّي والنيل من شخصيته إلّا عند القوم الذين تدينوا بالسباحة ضد التيار السُّني؛ فكل جميل نصنعه، هو قبيح عندهم، وكل حسن عندنا هو سيء عندهم، وكل ما نراه بياضا يرونه هم سوادا!

إن المنتج الرئيسي لهذا هو المؤرخ الشيعي اللبناني المعاصر: حسن الأمين (ت ٢٠٠٢ م)، وهو ابن المرجع الموسوعي الشهير محسن الأمين العاملي (١٩٥٢م)، الذي أكثر من الكتابة حول صلاح الدين رَحِمَهُ ٱللَّهُ، في الجرائد ثم جمع ذلك في كتاب غير مُحرَّر بعنوان: «صلاح الدين الأيوبي: بين العباسيين والفاطميين والصليبين»، صدر في بيروت، وطبعته الأولىٰ في عام (١٩٩٥م)،

وقال في مقدمته: «إننا لم نقصد في الأصل كتابة بحوث مستقلة عن صلاح الدين وإنما جمعنا ما كنا قد نشرناه مقالات متفرقة في الجرائد إما عرضًا لبعض أحداثه، أو ردًا على دعاوي مناصريه، لذلك قد يتكرر ذكر الأمر الواحد أكثر من مرة بحسب ما يقتضيه العرض أو الرد، ثم أضفنا إلى تلك المقالات بحوثًا كان لا بد منها»[1].

ولا عجب من فعل المؤرخ الشيعي إذا ما صب جام غضبه على مَن قوّض الدولة الشيعية في مصر بعد قرابة قرنين ونصف من الزمان وإنما العجب من الدكتور يوسف زيدان أن يتبنى هذا الطرح الطائفي، وغالب الظن أن الدكتور زيدان لم يتعَنّ قراءة الكتاب أو تَعَنِّي التثبت من صحة تلك المعلومات والتلفيقات التي ضخها فيه حسن (الأمين) وما هو بأمين! والظاهر أنه قد استفاد من الدراسة المكثفة التي قام بها باحث عراقي في مجلة المنهاج الشيعية، والتي تصدر في بيروت، عن مركز الغدير للدراسات، وقد جاءت الدراسة بعنوان: (حسن الإمام مؤرخًا؛ معالم منهج وملامح قراءة متوازنة)[2].

---

(١) ينظر: حسن الأمين، صلاح الدين الأيوبي: بين العباسيين والفاطميين والصليبيين، دار الجديد، بيروت، ط١ (١٩٩٥م)، (ص٥).

(٢) ينظر: مجلة المنهاج، العدد (٣٢)، (١٤٢٤-٢٠٠٤م)، (ص١٢٧-١٥٣)، للأستاذ/ صائب عبد الحميد.

وليس الغرض هنا تفنيد شُبه هذا أو ذاك[١]، وإنما سقنا هذا المثال القريب للدلالة على استمرار تلك التقنية ضمن التقنيات التي يستخدمها الحداثيون ويطورونها باستمرار مع بقائها تحت الأصل المريسي: (المغالطة بالتأويل، والمدافعة بالتكذيب).

والحاصل: أن أساليبهم وحيلهم ليست حقائق بل أباطيل، وإنها مهما تبدو لمن لا دراية له أنها تشبه الحقيقة= إلا أن هذا لا يعدو أن يكون لونًا من التخييل!

فعندما ألقى سحرة فرعون حبالهم وعصيهم فتحولت إلى ثعابين، فلا يعني هذا أنها أصبحت ثعابين على الحقيقة، بل خُيِّل من سحرهم ومكرهم أنها تسعى، ولنا في قول الله تعالى آية، حيث قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبۡطِلُهُۥٓ﴾ [يونس:٨١].

والحمد لله رب العالمين[٢].



(١) انبرى للرد على أكاذيب الأمين وزيدان مجموعة من الباحثين، منهم: المؤرخ السوري شاكر مصطفى، بعنوان (صلاح الدين الفارس المجاهد والملك الزاهد المفترى عليه)، وينظر أيضًا مقال الأستاذ أحمد الظرافي، «المؤرخ الشيعي حسن الأمين ونظرته للناصر صلاح الدين»، منشور على موقع البينة (*http://www.albainah.net*)، بتاريخ (١٩ من شوال ١٤٣١هـ/ ٢٨ من سبتمبر ٢٠١٠م)، كما قام ببيان انتحال الدكتور زيدان، الكثير مثل: الدكتور أيمن فؤاد سيد، ومحمد إلهامي وآخرين.

(٢) إعداد: محمد حشمت.



ورقةٌ نقديّة للأغلاطِ المعرفيّة عند التيار الحداثي

تأخذ القراءة للنص من أجل إفهامه وتَفَهُّمِهِ كثيرًا من الطاقة الفكرية لدىٰ المشتغلين بالعلوم الإسلامية، وقد سعت القراءات الجديدة للنص إلىٰ إيجاد آليات معيارية تضبط علاقة اللفظ بالمعنىٰ، وتُقَنِّنُ دلالة المنطوق علىٰ المفهوم ليتم تفادي أي تفسير مجاني، أو تأويل عبثي، فكان علم أصول الفقه هو الأداة المعيارية الأقوىٰ لحماية النصوص من التلاعب بدلالتها، كما شكّل شبحًا مخيفًا للمتطفلين فكريًّا علىٰ العلوم الإسلامية، فسعوا بكل ما أُتوا لتجاوزه أو تجنبه ليتمكنوا من ممارسة هوايتهم المفضلة؛ وهي اللعب بالدلالات والحقائق الشرعية، مستعملين في ذلك نظريات التأويل الحديث لتجاوز المرجعية الإسلامية، واعتبار النصوص الشرعية نصوصًا لغوية، وعليه فإن المداخل اللغوية كافية في تفسيرها واستخلاص معانيها، ونظرا لتكامل البناء المعرفي الديني وصعوبة هدمه من الخارج ومشقة تجاوز آلياته أثناء ممارسة عملية الهدم من الداخل؛ فقد أدىٰ ذلك ببعضهم إلىٰ العدول عن تجاوز المعارف الإسلامية، فعمدوا إلىٰ ضرب بعضها ببعض، والتعلية من شأن بعضها من أجل إسقاط البعض الآخر.

فكانت المقاصد راية الحداثيين التي يتجمعون حولها ويحتشدون تحتها ويرفعونها في مقابل أصول الفقه، ويتخذون منها ذريعة لتبديل الشرع، وترك كل ما لا تهواه أنفسهم، ونحن في هذه الورقة نُجَلِّي المقاصد الشرعيةَ، ونبين مدلولها وكيف مارس الحداثيون التمويه الثقافي من خلال استخدامهم لها بعيدًا عن الضوابط الشرعية، وسوف نبدأ بالمقاصد من المنظور الحداثي لنحاكمها إلىٰ المنظور الشرعي.

۞ المقاصد في الفكر الحداثي:

لقد اهتم الحداثيون بالمقاصد وأعلوا من شأنها، وذلك من أجل تخفيف حد النظرية الصارمة لأصول الفقه واستبدالها بمفهوم المقاصد(١)، كما اعتقدوا التضارب الدائم بين النصوص الثابتة والمصالح المتغيرة، وهذا يعني وِفْقَ النظرية المقاصدية عند الحداثيين إلغاء تفعيل النصوص لصالح المقاصد التي تراعي المصلحة، يقول فهمي هويدي: "إذا حدث التعارض بين النصوص وبين أيٍّ من مصالح الناس المعتبرة، فلا مجال لتطبيق الأولىٰ، وتُغَلَّبُ المصلحة علىٰ النص في الثانية"(٢).

---

(١) ينظر: تاريخية الفكر العربي الإسلامي، محمد أركون (ص١٧٠).

(٢) التدين المنقوص، هويدي (ص ١٧٦).

وبنوا على هذا تخطئة الفقهاء الذين يربطون تطبيق الشريعة بتطبيق أحكامها، فتطبيق الشريعة عند الحداثيين يكون بتطبيق روحها[١].

وذهب الجابري إلىٰ أبعد من ذلك فرأىٰ أن العلة ليست موجبة للحكم، وانتقد القاعدة المعروفة "الحكم يدور مع علته وجودًا وعدمًا"، واعتبر أن المصلحة هي الحاكمة علىٰ النص[٢]، ومراده من ذلك ألا يتقيد بالعلة التي هي مناط الحكم؛ لأنها قد تقيده في التعامل مع النص بوجودها من عدمه، فَعَوَّضَ ذلك بِالتَّمَلُّصِ منها وتعليق الحكم بمفهوم عائم هو المصلحة، دون أن يضع لها تعريفًا أو ضابطًا، وتوصلوا من خلال هذا الطرح إلىٰ أن فكرة النسخ ليست خاصة بالنص الشرعي، بل هي موكولة إلىٰ الأمة؛ لأن الأحكام ليست مطلقة بل نسبية خاضعة للظروف الزمانية والمكانية، ولهذا فقد نسخ عمر بن الخطاب ﵁ حكم المؤلفة قلوبهم، وأوقف توزيع الأرض المفتوحة علىٰ الغانمين[٣].

---

(١) ينظر: جوهر الإسلام، محمد عشماوي (ص ٣٧).
(٢) ينظر: وجهة نظر، الجابري (ص ٦٣).
(٣) ينظر: التجديد في الفكر السلامي، عدنان أمامة (٤٦٣).

وقد توالت كلمات الحداثيين في تمجيد المقاصد ورفعها في وجه أصول الفقه كأداة للاستنباط، كما جعلوا منها سجنًا للنصوص الشرعية المرتهنة للواقع الاجتماعي والسياسي والزماني حسب زعمهم، واعتبروا أن الفكر الديني مرتبك بسبب سيطرة فكرة قداسة النص واعتباره متجاوزًا لواقعه، ولا حَلَّ إلا في التخلص من قداسته لصالح المصلحة والمقصد، كما فعل عمر بن الخطاب(١).

واعتبروا المقاصد هي الملاذ الوحيد الذي يُمكِّنُ المجتهد الحداثي من نسخ ما فُقِدَتْ مصلحته، ويتخلص من سلطة النص ويصبح حُرًّا في كيان التشريع الإسلامي.

هذه هي محصلة المقاصد في الفكر الحداثي ويحسن بنا بعد عرضها بإيجاز أن نتجول بها في روضة النصوص الشرعية؛ لنرىٰ هل تَمَكَّنَ أصحابها من رؤية الحديقة الشرعية الغنّاء علىٰ حالها؟ أم كان همهم كيف يتسللون لها لواذًا بعيدًا عن أعين الحراس؟ فدخلوها ليلًا فسقطوا في الآبار الساقية لها دون أن يروها علىٰ حقيقتها، ولنبدأ بتفصيل المقاصد من منظور شرعي:

---

(١) ينظر: الدين وتطبيق الشريعة، الجابري (ص ١٢).



❁ المقاصد في الشريعة:

إن التفصيل في شأن المقاصد يفيدنا كثيرًا في بناء تصور معرفي سليم حول المقاصد، وقبل الحديث نمرُّ في إطلالة سريعة علىٰ تعريف موجز لها:

المقاصد: جمع مَقْصَدٍ، قال في لسان العرب: القصد الاعتزام والتوجه والنهوض نحو الشيء علىٰ الاعتدال أو الجور[1].

ولم يبتعد الأصوليون بمعناها الاصطلاحي عن المعنىٰ اللغوي لها.

وإذا أردنا فهم المقاصد من منظور شرعي فلابد من فهمها في الإطار الشرعي الذي حددته النصوص لها؛ **وذلك من خلال دراسة مقاصد الشريعة في جوانب عدة:**

أولها: قصد الشارع من وضع الشريعة: فتكاليف الشريعة ترجع إلىٰ حفظ مقاصدها في الخلق، وهذه المقاصد لا تعدو ثلاثة أقسام:

أحدها: أن تكون ضرورية.

والثاني: أن تكون حاجية.

والثالث: أن تكون تحسينية.

---

(١) لسان العرب (٤/ ١٤٠).

فأما الضرورية، فمعناها أنها لا بد منها في قيام مصالح الدين والدنيا، بحيث إذا فُقِدت لم تجرِ مصالح الدنيا علىٰ استقامة، بل علىٰ فساد وتهارج وفوت حياة، وفي الأخرىٰ فوت النجاة والنعيم، والرجوع بالخسران المبين، والحفظ لها يكون بأمرين:

أحدهما: ما يقيم أركانها ويثبت قواعدها، وذلك عبارة عن مراعاتها من جانب الوجود.

والثاني: ما يدرأ عنها الاختلال الواقع أو المتوقع فيها، وذلك عبارة عن مراعاتها من جانب العدم.

فأصول العبادات راجعة إلىٰ حفظ الدين[(١)].

مراعاة الضروريات من جانب الوجود تكون بفعل ما به قيامها وثباتها، ومراعاتها من جانب العدم تكون بترك ما به تنعدم، كالجنايات، فلا يقال: إن مراعاتها من جانب الوجود بمثل الصلاة، وتناول المأكولات مثلًا هو مراعاة لها من جانب العدم، إذ بفعل هذه الأشياء التي بها الوجود والاستقرار لا تنعدم مبدئيًّا أو لا يطرأ عليها العدم، فما كان مراعاة لها من جانب الوجود هو أيضًا مراعاة لها من جانب العدم بهذا المعنىٰ[(٢)].

---

(١) الموافقات للشاطبي (٢/ ٩).

(٢) ينظر: شرح العضد علىٰ ابن الحاجب (٢/ ٢٣٨)، والمستصفىٰ (١/ ٢٥١)، وشرح المحلىٰ علىٰ جمع الجوامع (٢/ ٢٨٠).

فإذا كانت الشريعة جاءت لحفظ الكليات الخمس؛ فإن أعظم هذه الكليات وأساسها هو الدين، وبه تحفظ، فلا يمكن أن يتم تجاوزه لأنه هو الذي به تعرف الكليات الأخرىٰ، فلزم علىٰ المكلف أن يُرْجِعَ مفهوم المصلحة إليه، "ولا بد أن يعرف ما يريده هل هو نافع له أو ضار؟ وهل يصلحه أو يفسده؟

وهذا قد يعرف بعضه الناس بفطرتهم كما يعرفون انتفاعهم بالأكل والشرب، وكما يعرفون ما يعرفون من العلوم الضرورية بفطرتهم، وبعضهم لا يعرفونه إلا بتعريف الرسل وبيانهم لهم وهدايتهم لهم، وفي هذا المقام تكلم الناس في أن الأفعال هل يعرف حسنها وقبيحها بالعقل؟ أم ليس لها حسن ولا قبيح يعرف بالعقل؟ أن يكون الفاعل سببًا لما يحبه الفاعل ويلتذ به، وسببًا لما يبغضه ويؤذيه، وهذا القدر يعلم بالعقل تارة، وبالشرع أخرىٰ، وبهما جميعًا أخرىٰ؛ لكن معرفة ذلك علىٰ وجه التفصيل، ومعرفة الغاية التي تكون عاقبة الأفعال من السعادة والشقاوة في الدار الآخرة لا تعرف إلا بالشرع، فما أخبرت به الرسل من تفاصيل اليوم الآخر وأمرت به من تفاصيل الشرائع لا يعلمه الناس بعقولهم"(١).

---

(١) الفتاوىٰ، لشيخ الإسلام (٣/ ١١٤- ١١٥).

فإذا كان الأمر على هذا النحو فإن المصالح التي سعت الشريعة لجلبها والمفاسد التي سعت لدفعها ضربان: أخروية ودنيوية، "فإذا ثبت أن الشارع قد قصد بالتشريع إقامة المصالح الأخروية والدنيوية، فذلك على وجه لا يختل لها به نظام، لا بحسب الكل ولا بحسب الجزء، وسواء في ذلك ما كان من قبيل الضروريات أو الحاجيات أو التحسينات، فإنها لو كانت موضوعة بحيث يمكن أن يختل نظامها أو تنحل أحكامها، لم يكن التشريع موضوعًا لها، إذ ليس كونها مصالح إذ ذاك بأولى من كونها مفاسد، لكن الشارع قاصد بها أن تكون مصالح على الإطلاق، فلا بد أن يكون وضعها على ذلك الوجه أبديًّا وكليًّا وعامًّا في جميع أنواع التكليف والمكلفين من جميع الأحوال"(١).

وهذه المصالح والمفاسد المعتبرة شرعًا إنما هي معتبرة من حيث تقوم بها حياة الناس دنيا وأخرى، لا من حيث أهواء النفوس في جلب المصالح أو درء المفاسد، فلا عبرة بهوى المكلف، بل الشريعة قاصدة لإخراج المكلف عن داعية هواه ليكون تبعًا للشرع فيما يدع ويذر، وقد جعلت اتباع الهوى في تحديد الحق مفسدة خالصة، قال تعالى: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن

---

(١) الموافقات، للشاطبي (٢/ ٣٧).

ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴾ [المؤمنون:٧١]. وقال تعالىٰ: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [الجاثية:١٨].

وعليه فإن المصالح تراعىٰ شرعًا مادامت مصالح، فإذا تعارضت فإنه يقدم بعضها علىٰ بعض، فالمصالح الأخروية مقدمة علىٰ المصالح الدنيوية؛ لأن المصالح الدنيوية عاجلة وفانية والمصالح الأخروية باقية وأبدية، ولأن المصالح الدنيوية خادمة للمصالح الأخروية(١).

حتىٰ لا نقع فيما وقع فيه الحداثيون من التمويه علىٰ القارئ والخوض في العموميات فإننا نضع النصال علىٰ النصال، ونُعرِّفُ المصالح والمفاسد، ونبين جهة معرفة كل واحدة منهما، "فالمصالح أربعة أنواع: اللذات وأسبابها، والأفراح وأسبابها، والمفاسد أربعة أنواع: الآلام وأسبابها، والغموم وأسبابها.

وهي منقسمة إلى دنيوية وأخروية.

فأما لذات الدنيا وأسبابها، وأفراحها وأسبابها، وآلامها وأسبابها، وغمومها وأسبابها؛ فمعلومة بالعادات.

وأما لذات الآخرة وأسبابها، وأفراحها وأسبابها، وآلامها وأسبابها، وغمومها وأسبابها؛ فقد دل عليها الوعد والوعيد والزجر والتهديد.

---

(١) ينظر: القواعد الكبرىٰ، للعز بن عبد السلام (١/ ١٢).

فأما اللذات ففي مثل قوله: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الزخرف:٧١].

وأما الأفراح ففي مثل قوله: ﴿فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ [الإنسان:١١].

وقوله: ﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [آل عمران:١٧٠].

وأما الآلام ففي مثل قوله تعالىٰ: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [البقرة:١٠].

وأما الغموم ففي مثل قوله تعالىٰ: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [الحج:٢٢].

فهذه هي قاعدة المصالح والمفاسد التي تعرف بها(١).

والقارئ للشريعة عمومًا يجد أنها مراعية للمقاصد جارية في جميع التكاليف علىٰ حفظها؛ لكن الذي قد يقلق الحداثي ويبين خلله المنهجي هو أن المقاصد ليست هي المصالح، بل هي شيء أعم من ذلك، وهي محددة بقضايا كلية، وأهم هذه القضايا مُتَجَاوَزٌ لدىٰ الحداثيين ألا وهو الدين، فجميع من تكلم في

---

(١) ينظر: المرجع السابق (١/ ١٥-١٦).

المقاصد يتكلم عن حفظ الدين وأنه هو المقصد الأول، وبقية الكليات بالنسبة للدين هي بمثابة الحاجيات، فهي خادمة له وتابعة، ولا تراعىٰ إلا من جهة موافقتها له، وإلا كانت أهواءً غير معتبرة شرعًا، ومن أهم قواعد المقاصد الشرعية: أنْ لا يُردَّ بها أي حكم جزئي، فإذا ثبت نصٌّ شرعي أو حكم فقهي؛ فلا يجوز أن يُنقَض ويُتجاوَز بدعوَىٰ أنه مخالف لقاعدة مقاصدية؛ فهذا باطلٌ لا علاقة له بعلم المقاصد؛ "فإنَّ ما يخرم قاعدة شرعية أو حكمًا شرعيًّا ليس بحق في نفسه"(١).

وحين تُعْرَضُ النظرة المقاصدية الحداثية علىٰ الميزان الشرعي للمقارنة بينها وبين ما قرره أهل الاختصاص وشهدت به النصوص الشرعية؛ يتبين أن الفكرة ليست لها أسس علمية متينة تنبني عليها، كما تعاني من غموض وارتباك في جانب التأصيل لها، وذلك ما سوف نتناوله في العنوان الموالي:

الحداثيون والأغلاط المعرفية في الاستدلال بالمقاصد:

إن أكبر خطأ ارتكبه الحداثيون هو الاختزال لنظرية المقاصد، فهم لم يقوموا بعملية استقرائية للنصوص الشرعية، وإنما اكتفوا بالعمومات، مما جعل محاولة مواجهتهم للمنجز المعرفي مواجهة فاشلة بكل المعايير، فمن المستبعد أن تكون المقاصد بهذه

---

(١) الموافقات (٢/ ٥٥٦).

الأهمية ولا توجد نصوص مُحَدِّدَةٌ لها وضابطة، مع أن الشريعة تناولت الأحكام الجزئية بالتفصيل فكيف تترك القضايا الكلية؟!

وقد ظهر غلطهم في التعامل مع النصوص من جهتين:

الجهة الأولى: اعتقاد التعارض بين الكلي والجزئي: وهذا غلط فاحش عندهم وقد مثلنا له بأمثلة مرت معنا في أول هذه الورقة العلمية، والحقيقة أنه لا يوجد تعارض بين كلي وجزئي فالقضايا الكلية بُنِيت علىٰ استقراء للجزئيات، فلا يتصور التعارض بينهما؛ لأن الكليات ما سُمِّيت كليات إلا بانسجامها مع الجزئيات، وكونها جامعة لها لا مخرجة لها، وعليه" فمن الواجب اعتبار تلك الجزئيات بهذه الكليات عند إجراء الأدلة الخاصة من الكتاب والسنة والإجماع والقياس؛ إذ محال أن تكون الجزئيات مستغنية عن كلياتها، فمن أخذ بنص -مثلًا- في جزئي معرضًا عن كليِّه؛ فقد أخطأ.

وكما أن من أخذ بالجزئي معرضًا عن كليِّه؛ فهو مخطئ، كذلك من أخذ بالكلي معرضًا عن جزئيه.

وبيان ذلك أن تلقي العلم بالكلي إنما هو من عَرْضِ الجزئيات واستقرائها؛ وإلا فالكلي من حيث هو كلي غير معلوم لنا قبل العلم بالجزئيات، ولأنه ليس بموجود في الخارج، وإنما هو مضمَّن في الجزئيات حسبما تقرر في المعقولات؛ فإذا الوقوف مع الكلي مع الإعراض عن الجزئي وقوف مع شيء لم يتقرر العلم به بعد دون العلم بالجزئي، والجزئي هو مظهر العلم به.

وأيضًا؛ فإن الجزئي لم يوضع جزئيًّا؛ إلا لكون الكلي فيه على التمام وبه قوامه، فالإعراض عن الجزئي من حيث هو جزئي إعراض عن الكلي نفسه في الحقيقة، وذلك تناقض، ولأن الإعراض عن الجزئي جملة يؤدي إلى الشك في الكلي من جهة أن الإعراض عنه إنما يكون عند مخالفته للكلي أو توهم المخالفة له، وإذا خالف الكلي الجزئي مع أنا إنما نأخذه من الجزئي؛ دل على أن ذلك الكلي لم يتحقق العلم به لإمكان أن يتضمن ذلك الجزئي جزءًا من الكلي لم يأخذه المعتبر جزءًا منه، وإذا أمكن هذا؛ لم يكن بدٌّ من الرجوع إلى الجزئي في معرفة الكلي، ودل ذلك على أن الكلي لا يعتبر بإطلاقه دون اعتبار الجزئي، وهذا كله يؤكد لك أن المطلوب المحافظة على قصد الشارع"[1].

فالمستقرئ لتفاصيل الشريعة الإسلامية، يجد أنها فَصَّلَتْ الكيفيات التي يحصل بها التعبد لله ﷻ؛ وشددت في أمرها وحضت على الالتزام بها، ووصفتها بأنها حدود الله ومحارمه، وَحَذَّرَتْ من التفلُّتِ منها أو الافتيات عليها، ووجَّهت اللَّوْمَ الشديد على من تعدَّاها أو تجاوزها، ورَتَّبَت العقوبة الشديدة على من خالفها، والشريعة مع كل تلك التأكيدات لم تُلمِح إلى أنها إنما جاءت بتلك التشريعات مُرَاعَاةً لظروف العصر، بل أَكَّدَتْ في نصوص كثيرة إلى أن تشريعاتها ملزمة إلى يوم القيامة.

---

(١) الموافقات (٣/ ٧-٨).

وكل هذه التشريعات التفصيلية هي بمجموعها منتظمة تحت قواعد كلية يتحصل منها مقصد الشارع، فهو يتحصل بمجموعها لا ببعضها، ولا يمكن أبدًا أن يُحَصِّلَ الإنسان مقصد الشارع دون أن يأتي بهذه الجزئيات وفق النسق الشرعي والترتيب الإلهي الذي رُتِّبَتْ فيه، فقول الحداثيين بخصوصيتها بالزمان والمكان يؤدي حتمًا إلىٰ إبطال الشريعة جملة وتفصيلًا؛ لأنه ليس فيها ثابت، وما ذكر من الأحكام في القرآن هو مجرد أمثلة يمكن تغييرها لصالح الواقع والمصلحة المتوهمَين، وهذا الاستنتاج الحداثي ينفي عن الشريعة صفة الإصلاح، لأنها لا تغير الواقع السيئ، وإنما تتكيف معه وتصوغ أحكامها وفقًا له، وهذا قول يعرف بطلانه بمبادئ العقل والفطرة.

الجهة الثانية: السطحية في التعامل مع المقاصد: وهذا أمر لا يخفىٰ علىٰ أي مهتم بدراسة الفكر الحداثي وإنتاجه العلمي في التعامل مع النصوص، فالذي يقارن بينهم وبين الفقهاء والأصوليين يجد فرقًا شاسعًا، فيجد أن الفقهاء المنضبطين بالآليات الشرعية في التعامل مع النصوص لهم إنجازات معرفية هائلة في شتىٰ المجالات الفقهية عبادات ومعاملات وأنكحة، وعندهم أجوبة شاملة لأغلب النوازل التي تَعْرِضُ لهم، بينما تَتَّسِمُ القراءة الحداثية حتىٰ في طورها المقاصدي بالغموض وضعف الإنتاج وصعوبة الاستنباط، فكثير من الأبواب لا رأي لهم فيه يذكر، وبعض الأبواب لهم فيه آراء لم يتفقوا عليها

ولم تكن محل تسليم، والسبب هو سطحية التفكير المقاصدي عند الحداثيين واتسامه بعدم الجدية، فالشريعة مثلًا من مقاصدها حفظ الدين فإذا وُجِدَ في الناس انتهاك لحرمة الدين واستهزاء به؛ فإن النظرة المقاصدية تقتضي تفعيل كل الأحكام التي من شأنها حفظ الدين كحد الردة والتعزير وغيرها، لكن في النظرة المقاصدية الحداثية الأمر مختلف، فتُرفع الحرية في وجه التكاليف الشرعية وتُجعل مقصدًا من مقاصد التشريع، مع أن التكليف والأمر والنهي يناقضانها في مفهومها الفلسفي والحداثي، فهذا الاستصنام المنهجي لمفهوم الحرية أربك الحداثيين في التعامل مع النصوص الشرعية الضابطة للحرية، كما جعل أمرهم عليهم غُمَّةً في التعامل مع مقاصد الشريعة، فلم تتسم فكرتهم بالجدية وإنما غلب عليها الاستثمار والتوظيف بدل الاستدلال والالتزام، وسوف نبين للقارئ الكريم أن ما يقوم به الحداثيون من الإشادة بالمقاصد ليس إلا تستُّرًا بها أمام المصداقية العلمية لآليات شرعية أخرىٰ ليحققوا مآرب خاصة، وذلك ما سوف نتناوله تحت عنوان الاستلال بالمقاصد عند الحداثيين.

۞ الاستدلال بالمقاصد عند الحداثيين والفجوات المعرفية:

إنه من نافلة القول أن أُؤكِّدَ للقارئ الكريم أن الحداثيين لا يرفعون بنصوص السنة رأسًا حتىٰ ولو صحت، لكن للقارئ أن يستشكل -وأنا معه- أَنَّ أغلب ما سوف يناقش من أدلة الحداثيين هو استدلال بالسنة غير المتواترة! فما وجهه؟

لست بصدد الإجابة عن الحداثيين في علّتهم في أخذ بعض الأحاديث والاستدلال بها، لأني على يقين أن ذلك لم يكن وفق ميزان علمي معتبر، وإنما حسبي أن أتنزل معهم فأقبل دليلهم، مع أنه لا يصلح أن يكون دليلًا وفق شروطهم لا من جهة الثبوت ولا من جهة الدلالة، لكني سوف أناقشه من الوجه الذي استدلوا به، فقد قاموا بتوظيف بعض الأحداث للاستدلال بها على أن المصلحة مقدمة على النص، وعليه فإن إمكانية نسخه حتى من طرف الأمة أمر وارد، بل هو المقبول.

وممن فعَّل الاجتهادات العُمَرِية بشكل مكثف: نصر حامد أبو زيد؛ فإنه برّر مواقفه التي توصل فيها إلى أن العقائد الدينية مرتهنة بالواقع، تتغير بتغيره، وتتبدل بتبدله، بالاعتماد على بعض اجتهادات عمر بن الخطاب رضي الله عنه، مثل موقفه من نصِّ المؤلَّفة قلوبهم؛ إذ أن عمر بن الخطاب لم يتعامل مع النص كسلطة دائمة عندما وضعه في سياقه[1]. فبادروا إلى وصف فعل عمر بأنه إلغاء للنص وتقديم للمصلحة عليه، كما استدلوا بتعطيله لحد السرقة عام الرمادة؛ بأنه أكبر دليل لهم على أن الدليل القطعي والحكم القطعي يمكن تحيينهما وتعطيلهما لصالح الواقع والمصلحة، وإذا أخذنا في فحص هذه الاستدلالات وتحليل هذه الوقائع

(١) ينظر: مفهوم النص، لنصر أبو زيد (ص١٠٤).

سوف يتكشف لنا حجمُ الكوارث المعرفية التي أصيب بها المشروع الحداثي أثناء محاولة الاستنجاد بالمقاصد كقاعدة خلفية يحارب من طرف خفي منها النصوص الشرعية. ولنبدأ بقصة المؤلفة قلوبهم:

أولا: القصة كما هي:

روىٰ البيهقي في السنن بإسناده عَنِ ابْنِ سِيرِينَ، عَنْ عَبِيدَةَ قَالَ: جَاءَ عُيينة بْنُ حِصْنٍ، وَالْأَقْرَعُ بْنُ حَابِسٍ إِلَىٰ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَقَالَا: يَا خَلِيفَةَ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِنَّ عِنْدَنَا أَرْضًا سَبِخَةً لَيْسَ فِيهَا كَلَأٌ وَلَا مَنْفَعَةٌ، فَإِنْ رَأَيْتَ أَنْ تَقْطَعَنَاهَا لَعَلَّنَا نَزْرَعُهَا وَنَحْرُثُهَا، فَذَكَرَ الْحَدِيثَ فِي الْإِقْطَاعِ، وَإِشْهَادِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَلَيْهِ وَمَحْوِهِ إِيَّاهُ قَالَ: فَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: " إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَتَأَلَّفُكُمَا وَالْإِسْلَامُ يَوْمَئِذٍ ذَلِيلٌ، وَإِنَّ اللهَ قَدْ أَعَزَّ الْإِسْلَامَ فَاذْهَبَا، فَأَجْهِدَا جَهْدَكُمَا لَا أَرْعَىٰ اللهُ عَلَيْكُمَا إِنْ رَعَيْتُمَا " وَيُذْكَرُ عَنِ الشَّعْبِيِّ أَنَّهُ قَالَ: لَمْ يَبْقَ مِنَ الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ أَحَدٌ، إِنَّمَا كَانُوا عَلَىٰ عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَلَمَّا اسْتُخْلِفَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ انْقَطَعَتِ الرِّشَا، وَعَنِ الْحَسَنِ قَالَ: أَمَّا الْمُؤَلَّفَةُ قُلُوبُهُمْ فَلَيْسَ الْيَوْمَ "(١).

ومن قرأ القصة واستحضر سياقها تَبَيَّنَ له حجم السطحية التي

---

(١) السنن الكبرىٰ، للبيهقي (١٣١٨٩).

تعامل بها الحداثيون مع القصة، وسذاجة الاستنتاج الذي ذهبوا إليه، فنحن حين نرجع إلىٰ أوصاف الأصناف المعتبرة في الزكاة المذكورة في الآية ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾ [التوبة:٦٠]. فهذه أوصاف عرَضِية ليست لازمة للشخص، فالشخص قد يُعْطَىٰ اليوم من الزكاة لأنه متصف بصفة من هذه الأوصاف، ويمنع غدًا لتغير صفته إما إلىٰ غنىٰ إن كان فقيرًا، أو الحرية إن كان عبدًا، أو بسداد الدَّيْنِ إن كان غارمًا، أو بالإقالة إن كان عاملًا، وكل ما فعل عمر أنه رأىٰ انتفاء هذه الصفة في حق بعض أصناف الزكاة ولم يُلغها، فعمر علَّق الحكمَ بعلّته وجودًا وعدمًا في هذه الحادثة، ولم يلغه ولم يَدَّعِ ذلك؛ ولذلك لم يعتبر أحدٌ من السلف ما فعله عمر إلغاء للحكم وإبطالًا له، فهذا حفيده عمر بن العزيز عمل بحكم المؤلفة قلوبهم لأنه رأىٰ علّته قائمة[1].

وثمّت فجوة معرفية أخرىٰ تتعلق بقصة عمر، وهي تدل علىٰ عدم استيعاب الأحداث والنظر نظرة متكاملة للمرويات، فهم حين سلطوا عدستهم الانتقائية علىٰ حادثة المؤلفة قلوبهم غفلوا

(١) الطبقات الكبرىٰ، لابن سعد (٥/ ٥٥٨).

عن أمور أخرىٰ من تصرفات عمر تـأتي علىٰ بنيـانهم مـن القواعـد، وتؤكد أن عمر كان يعمل بالنص ويُعلـي مـن شـأنه حتـىٰ في مقابـل المصلحة، ويؤكد ذلك التزامه تقبيل الحجر الأسود وتأكيـده علـىٰ أن ذلك ليس مراعاة لمقصد بل لمجرد التأسـي، فقـد قَبَّـلَ الحجـر الأسود وقال:" أَمَا إِنِّي أَعْلَـمُ أَنَّـكَ حَجَرٌ وَلَكِـنْ رَأَيْـتُ رَسُـولَ اللهِ ﷺ يُقَبِّلُكَ "(١).

وقـال:" مَـا لَنَـا وَلِلرَّمَـلِ؟! إِنَّمَـا كُنَّـا رَاءَيْنَـا بِـهِ الْمُشْـرِكِينَ، وَقَـدْ أَهْلَكَهُمُ اللهُ. ثُمَّ قَالَ: شيء صَنَعَهُ النَّبِيُّ ﷺ فَلاَ نُحِبُّ أَنْ نَتْرُكَه "(٢).

فهذه تصرفات لعمر أيضا التـزم فيهـا بـالنص حرفيًّـا فمـا وجـه تركها وأخذ الأخرىٰ؟!

ولـو اعتمـدنا هـذه الطريقـة الانتقائيـة القائمـة علـىٰ العجلـة في الاستنباط ورد الاستقراء بالوقائع الجزئية لأبطلنـا الشـريعة، ولعـل العجب يشتد أنهم استدلوا بفعـل عمـر علـىٰ إلغـاء الـنص في مقابـل التيسـير، وأغمضـوا جفـونهم عـن التشـديد في الحكـم للمصـلحة؛ ولذلك وقائع أيضًا تشهد له، منهـا تشـديد عمـر في مسـألة الطـلاق، فقـد روىٰ طـاووس أن أبـا الصـهباء قـال لابـن عبـاس: "هـات مـن

(١) مسند أحمد (٣٦١).
(٢) صحيح البخاري (١٦٠٥).

هنَاتك، ألم يكن الطلاق الثلاث علىٰ عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر واحدة؟ فقال: قد كان ذلك فلما كان في عهد عمر تتابع الناس في الطلاق فأجازه عليهم"(١).

فهذا القلب للدليل يبين عدم المنهجية عند الحداثيين، ومستوىٰ الارتباك في التعامل مع النصوص، وكان الأولىٰ أن تُجَمعَ الوقائع وتدرس من ناحية الثبوت والضعف، ثم ينظر في مستندها ومدىٰ انسجامها مع المعنىٰ الكلي للشريعة في كل باب، أَمَّا أن يُنتقىٰ منها وتُجعل الحوادث العينية ناقضة للأصول؛ فإن هذا لا يمكن تصنيفه علميًّا إلا في إطار العبث الاستدلالي بالنصوص، ومن المحال عقلًا وشرعًا أن تكون المقاصد مراعاة بهذه المنهجية التي يتكلم عنها الحداثيون، ثم لا يكون لها مما يشهد لها من النصوص إلا وقائع تاريخية وليست نصوصًا شرعية، ولو حوكمت إلىٰ المنطق الحداثي نفسه في التعامل مع الوقائع وتفسيرها لكانت باطلة، فكيف إذا حوكمت إلىٰ المنهجية العلمية الأكثر تعقيدًا وصرامة.

لم ينتهِ المسير بعد بالحداثيين في قضية المقاصد المحزنة، بل هناك دليل آخر لهم يجعلون منه مقصدًا من مقاصد الشريعة، ودليلًا علىٰ تغليب المصلحة علىٰ النص، وهذا هو بين يديك:

---

(١) مسلم (١٤٧٢).

۞ تعطيل عمر لحد السرقة عام الرمادة:

أثـر عمـر رواه عبـد الـرزاق في مصـنفه[١]، وابـن أبـي شـيبة في مصنفه[٢].

وسوف نتسامح فلا نُعْمِلُ الآليات الحديثية الصارمة والمقلقـة للتيـار الحـداثي؛ لأنهـا بطبيعـة الحـال لـن تسـعف الحـداثيين، فالحديث طبقًا لها ضعيف لوجـود المجاهيـل فيـه، وفي المقابـل نَغُضُّ الطرف عن شرط الحداثيين في قبول الحديث وهو التواتر والْقَطْعِيَّةُ في المعنىٰ، فكِلا المسلَكين لا يخدم التيار بـل يشـهد ضده، وإنما سوف نُخَفِّضُ المعايير العلمية ونتعامل مع النص كما لو أنه ثابت، ونناقش مضمونه ونحلّله ونبين هل هو دليل لهم فيما يذهبون إليه من رد النصوص وإعمال المصالح؟

مـن المعلـوم لـدىٰ المسـلمين أن الحـدود في الشـريعة لا تقـام بمجـرد الوقـوع فيمـا يوجبهـا؛ فـلا بـد مـن تـوفر شـروطها وانتفـاء موانعهـا، وقـد أرشـدت السـنة إلـىٰ أهميـة البينـات فيهـا، وأن قيـام الشبهة مُسقطٌ للحدِّ، فقد قال ﷺ: «**ادرؤوا الحدود عن المسلمين ما استطعتم؛ فإن وجدتم لمسلم مخرجًا فخلوا سبيله**»[٣]، فهـذا نـص مقيِّـد لآيـة السـرقة، وهـو أن كـل سـرقة لا توجـب الحـدّ،

(١) مصنف عبد الرزاق (١٨٩٩٠).
(٢) مصنف ابن أبي شيبة (١٠/ ٢٨).
(٣) الحاكم في المستدرك (٨١٦٣) وصححه.

وقد بَيَّنَ عمر أن الدافع له في ذلك إعمال هذا النص والتخصيص به، لا إبطال النص الآخر لأجل المصلحة كما يتوهم هؤلاء، فقد روىٰ ابن أبي شيبة في مصنفه أن عمر بن الخطاب قال: "لئن أعطل الحدود بالشبهات أحب إلي من أن أقيمها بالشبهات"[(١)]. وتحقُّقُ الشبهة يدرأ الحدَّ بإجماع العلماء، وقد حكىٰ الإجماع عليه ابن قدامة[(٢)].

فكان من رأي عمر أن من الشُّبَه التي يُدرأ بها الحد المجاعة الشديدة، وليس هو ما ذهب إليه الحداثيون، فكل ما فعل عمر أنه عمل بمقيِّدات أُخَرَ للنص ولم يلغه كما يتوهم الحداثيون، فهذه الفجوة المعرفية الواضحة والتي تظهر في اقتطاع النص من سياقات عدة، واختياره للتشريح دون تمريره علىٰ أي أداة فحص علمية سواء كانت حديثية أو أصولية أو فقهية؛ دليل علىٰ عدم الجدية أو الكسل البحثي، فمن المعلوم أنه لا يكفي في بناء القول والإقناع به مجرد ادعاء الصحة له؛ وإنما لا بد من إقامة الأدلة الصحيحة عليه، مع الإجابة عن اللوازم التي تنافي القول وتُحدِث التناقض فيه، وتثير الأسئلة الملحَّة عليه، وتمنع الأخذ به والاقتناع بصحته.

---

(١) مصنف بن أبي شيبة (٢٨٤٩٣).

(٢) المغني لابن قدامة (٩/ ٥٦٥).

والخطاب الحداثي قرّر أصولًا تتنافىٰ مع القول بأن الشريعة لها مقاصد لا بد من اعتبارها والأخذ بها وتحكيمها، فتكرير الحداثيين لفكرة النص المفتوح، والذي يحتمل معاني عدة ينقض أصلهم القائل بأن الشريعة لها مقاصد، ثم هم مع القول بمقاصدية الشريعة لم يحددوا هذه المقاصد ولم يبينوها، بل اكتفوا بتكرير معنىً عائم وهلامي وهو المصلحة، ثم عند أول اختبار علمي يظهر عدم استيعاب المقاصد وفهمها في إطارها، فلْنَقُل -مثلًا-: إن الشريعة شرعت حد الردة لحفظ الدين، والقتل لحفظ النفس، والقطع من أجل حفظ المال، فالذي يجري علىٰ المقاصد هو أن تُفَعَّلَ هذه الحدود عند فُشُوِّ أي ظاهرة من هذه الظواهر، لكن الفكر المقاصدي الحداثي يقول: لا بل تُقدَّم المصلحة ويُعطَّل الحد، ومن جهة أخرىٰ حين نعتبر النصوص ظنية كلها ونُعمل المصالح القطعية؛ أليس من حق سائل أن يسأل: أين الدليل الذي دل علىٰ اعتبار المصالح؟

فإن كان نصًّا فهذا لا يعدو كون المصالح ظنية؛ لأن ما ثبت بالظني لا يمكن أن يكون قطعيًّا مطلقًا!!

وإن كان غير النصوص لزمهم تعيينه، وذلك ما لم يفعلوا.

ومن الأمور التي تبعث علىٰ اتهام الفكر الحداثي بعدم الجدية العلمية أنه حين جعل من المقاصد صنمًا لم يستطع إقامة دليل علمي علىٰ اعتبار المقاصد من منظوره؛ لأنه كيف يمكن أن تكون

المقاصد بهذه الدرجة ثم لا يوجد ما يشهد لها من النصوص إلا هذه الأدلة التي استشهد بها الحداثيون، وهي أدلة لا تصمد، فلا هي بالمسلمة ثبوتًا ولا بالمقبولة معنىً، ولو قمنا بمقارنة بين جهود الفقهاء والأصوليين وبين جهود المشروع الحداثي في بيان مقاصد الشريعة العامة والخاصة والمادية والمعنوية منها؛ فإنا نجد أن الفقهاء استطاعوا من خلال الجمع بين مقاصد الشريعة ونصوصها أن يحققوا إنجازات هائلة ويُفَعِّلُوا الفقه في حياة الناس، بينما كان المشروع الحداثي يخسر كل يوم علميًّا جزءًا كبيرًا من رصيده، وتظهر هذه الخسارة عند محاولة الاجتهاد أو الاستنباط، ولك أن تقارن بين المنجزات العلمية الهائلة للفقهاء وبين منجزات المشروع الحداثي، فإن المشروع الحداثي يموت عند العناوين ويُدفن عند المضامين، فلن ترىٰ له أي قيمة عند ممارسة العملية الاجتهادية، ولن تجد له أي استنباط ينافس عند طرق الأبواب الشرعية من عبادات وقضاء ومعاملات، بل يكتفي بإسقاط أكبر كَمٍّ من النصوص والأحكام، دون أن يقدم بديلًا عنها، أو يقيم دليلًا علميًّا سالمًا من المعارض علىٰ أحقيته في إسقاطها.

لقد كان الفقهاء والأصوليون مدركين بتمام الوعي لخطر العملية الاجتهادية ذات البعد المقاصدي من غير المؤهلين، فانصبت تحذيراتهم علىٰ أهمية التفريق بين مقاصد الشريعة

وأهـواء النـاس، ونبهـوا علـىٰ أن المقاصـد ليسـت وسـيلة لرمـي النصوص وعدم اعتبارها، لذا يقول الشاطبي: "فإن ما يخرم قاعدةً شرعيّةً أو حكمًا شـرعيًّا لـيس بحـق في نفسـه، بـل هـو إمـا خيـال أو وهـم، وإمـا مـن إلقـاء الشـيطان، وقـد يخالطـه مـا هـو حـق وقـد لا يخالطه، وجميع ذلك لا يصح اعتباره من جهة معارضته لما هـو ثابت مشروع، وذلك أن التشريع الذي أتىٰ بـه رسـول الله ﷺ عـام لا خـاص، كمـا تقـدم في المسـألة قبـل هـذا، وأصـله لا ينخـرم، ولا ينكسر له اطـراد، ولا يحاشىٰ مـن الـدخول تحـت حكمـه مكلـف، وإذا كان كذلك، فكل مـا جـاء مـن هـذا القبيـل الـذي نحـن بصـدده مضادًّا لما تمهد في الشريعة، فهو فاسد باطل"[١].

وبطبيعـة الحـال فـإن عمليـات التأويـل التـي قـام بهـا الخطـاب الحداثي بما تضمنته من استحضار واستبعاد موجه للنصـوص فـإن طبيعة الوحي قد تَأَبَّتْ علىٰ ذلـك، وبقـي الـوحي ظـاهرًا لا يمكـن إخفاؤه، فمع كـل النصـوص التـي اقتطعوهـا فقـد بقيـت النصـوص ذاتها تنقض النتائج النهائية للخطـاب، وأصـبحت صـورة الخطـاب المقاصـدي صـورة تلفيقيـة تعـاني مـن الهشاشـة العلميـة نتيجـة الانتقائية وعـدم المنهجيـة، مـع المسـارعة في تعمـيم الأحكـام قبـل استقراء جزئياتها، فيجعلون من المثال قاعدة، ومن النـادر مقصـدًا،

(١) الموافقات (٢/ ٤٥٤).

ومن الشاذّ مطردًا، هذا بالإضافة إلىٰ تغليب النَّفَسِ الاستهزائي والصراخ الإنشائي في الدعوة للاجتهاد والتجديد، والتصنيف السلبي لكل رأي أو معيار يقف سدًّا أمام المشروع الحداثي، الذي يعاني أوّل ما يعاني من إثبات الجدية والانضباط العلمي[1].

---

(١) إعداد: الحضرمي أحمد الطلبه.



الموضوعات	الصفحة

